
جورج سيمنون
زبائن
أفرونوس
Bibliotheca Alexandrina
0201603

زبائن اڤرونوس



اسم المؤلف : جورج سيمنون
العنوان الأصلي للكتاب : Les clients d'Avrenos
عنوان الكتاب : زبائن افرونوس
المترجم ليلى بشور
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
تاريخ الطبع : ١٩٩٦

اللوغو : علي شمس الدين

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون ٧٧٧٢٠١٩١ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس ٧٧٧٢٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد ٣١٨١ - ١١ فاكس ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252



جورج سيمنون

ترجمة : ليلى بشور

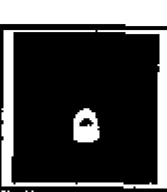
زبائن افرونوس



منشورات







ـ ١ ـ

كانت الحانة خالية من الزبائن إذ لم يكن بعد قد حان وقت السمر. اتكأ شاب يافع إلى البار بانتظار الراقصة «صديدة»؛ لم يُخدم باهتمام فقد اقتصرت طلباته على بضعة كؤوس من الجعة لم يكن ليشربها.

اتخذت الراقصة البدينة «لولا» مكانها المعهود على طاولة أمامية مرتدية الحرير الوردي المرصع باللآلىء الضخمة، ترسم على وجهها ابتسامة مبهمة لا تفارق وجهها أللهم إلا لبضع دقائق حين تقدم عرضها الراقص... فهي قد تقطب جبينها وتجمع شفتيها ناظرة إلى مواضع قدميها بملل واضح. لم تدَّع إتقانها الرقص وإن رقصت فذلك لأن الأنظمة لا تسمح لغير الفنانات بالعمل في الملاهي والحانات. لقد كانت مهنة«فنانة» مدونةعلى جواز سفرها.

لم تكن «صديدة» قد ظهرت بعد في الحانة فهي آخر من

يدخل المقصورة المعدَّة للراقصات في النزل ولم تكن لتظهر في الصالة إلا بعد أن تتأكد من خلال فتحة في الستارة من وجود الزبائن فيها. عندها يأخذ الزبائن بتحيتها والابتسام لها بمودة، يتلقفونها حين تمر بينهم ويربتون على ردفيها ومن لا يفعل ذلك فهو وافد جديد على انقرة.

بدا الشاب المتكئ على البار عاشقاً متيماً. وليتأكد من جدوى انتظاره أخذ يتجاذب اطراف الحديث مع المغنية الروسية «صونيا» التي تغني الأغاني العاطفية بالفرنسية ايضاً فسألها:

- هل أغلق المكان في وقت متأخر البارحة؟
- كالعادة. في الرابعة أو الخامسة صباحاً.
- و«صديدة»؟

نظر الشاب بمرارة وحقد إلى الجانب الذي تقوم فيه مقصورات صغيرة متوضّعة الواحدة تلوالأخرى في أقصى الحانة. هناك تُطلب الشمبانيا التركية والكوكتيلات تحتسيها «الفنانات» وذلك طبعاً يمنح الزبون الحرية في إسدال الستارة عليهما دون حرج. أما في الصالة فيسمح للزبائن بطلب الجعة أو شراب الليمون.

أخذ عازف الساكسوفون يجَهِّز آلته بملل؛ يحملها إلى شفتيه ويطلق نغمات حادة منه ثم يعيد النظر إليه بينما أخذ عازف البيانو يقرأ صحيفة استنبول. أما صاحب الحانة، اليهودي الشاب الأصلع، فقدكان يحضر المشروبات التي سوف يقدمها لزبائنه الدائمين.

شارفت الدورة البرلمانية على الانتهاء وسيعلن «الغازي»

عطلة مجلس النواب الصيفية وقد غادر بعض النواب العاصمة. من يبقى في العاصمة غير العاملين في السفارات؟ لم تكن «أنقرة» عاصمة البلاد. كانت قرية ريفية على رابية جرداء، مثلها مثل مركز تجمع زمن اكتشاف الغرب في أمريكا، قائمةحول ملهى «القط الأسود»، أمر مصطفى كمال بتحويلها إلى عاصمة فشيدت فيها القصور والوزارات وشقت فيها الطرقات العريضة وأقيم فيها فندق ضخم. ولو خطر يوماً لمصطفى كمال أن يمضي الصيف على ضفاف البوسفور لوجدمدينته هذه خالية من السكان والعاملين.

بدأ توافد البلجيكيين والسويسريين إلى انقرة منذ شهرين تقريباً؛ جاؤوا سعياً للحصول على امتياز مشروع تمديد للتيارالكهربائي فيها ونجحوا في الحصول عليه، لذلك فقد أقيم في فندق «قصر أنقرة» حفل عشاء على شرفهم دُعي اليه العديد من الموظفين المدراء والنواب.

توقع صاحب ملهى «القط لأسود» وصولهم إليه في الثانية صباحاً فهيأ لذلك عشر زجاجات من الشمبانيا الجيدة وبرَّدها. كانت هناك فتاة يونانية اسمها«أسبازي»، تشبه عيناها عينَي كلب حزين، تكتب رسالة بالحبر البنفسجي فنادى صاحب الملهى قائلاً لها: «إياك وتلطيخ الغطاءوإلاَّ....» أما «نوشي»الجالسة بقربها فهي مجريَّة جاءت إلى أنقرة منذ اسبوع وهي الآن تطلي أظافرها فما زال هناك قرابة نصف ساعة للبدء في العمل.

دق جرس الهاتف ورفع صاحب الملهى السماعة مشيراً إلى عازف الساكسوفون بالصمت وأخذ يتكلم بتواضع وعندما

أعاد السماعة إلى مكانها اتخذ وضعاً أكثر ثباتاً وفخراً وهو ينادي: «صديدة... اسبازي...! لولا...»لم يكن ليضطرب أبداً هكذا حين كان يأتيه أحد السفراء ويدخل المقصورة من الباب الخلفي! «صديدة...» نادى من جديد محدقاً إلى الأعلى. سمع وقع خطى متثاقلة وظهرت الغانية متبرجة بخفة، نصف عارية تحت مئزر ملطخ ببقع المساحيق فقال لها «ارتدي ملابسك فوراً واذهبي إلى "المزرعة"». اعتادت «صديدة» على تلك الأوامر فلم تتردد. أما«لولا» فهرعت إلى المقصورة وسألت الروسية «وأنا كذلك؟» فقال لها: «كلا! إننا بحاجة لاحداكن هنا» رغم أن أحداً لم يكن يرغب بفتائها، ثم سألت الهنغارية «نوشي» «وأنا؟» كانت الاصغر سناً، في الثامنة عشرة من عمرها،لها وجه غريب القسمات وأنف ذَلِقٌ ونظرة ثابتة. أجابها صاحب الملهى«جرّبي!». عم الهرج والمرج في انحاء الحانة فهناك عَدْوٌ على السلالم المؤدية إلى مقصورة الراقصات اللاتي يتبرجن ويضعن المساحيق الحمراء والزرقاء والبيضاء على وجوههن وهن يتدافعن أمام المرآة.

«صديدة!» تنهد الشاب منادياً إياها وهي تمر بقربه متوجهة إلى سيارة الاجرة فقالت له «ماذا ؟!» قال: «أتعدينني؟!». قهقهت ضاحكة وأعطته قبلة على وجنته ودخلت إلى السيارة مع الأخريات. لم يبق سوى «صونيا» في الصالة وعازف يفتش عن امرأتين تعملان من وقت لآخر عملاً اضافياً خارج الحانة.عاد صاحب الملهى إلى زجاجاته مبتسماً متخيلاً سيارة الاجرة التي تقل الراقصات في طريقها إلى المزرعة ترافقها دراجتان ناريتان من حرس «الغازي».

تقع «المزرعة» على أطراف أنقرة، وهي عبارة عن منزل بسيط غير طابقي وسط مزارع مشجَّرة يقضي فيها مصطفى معظم وقته. كان المدعوون قلائل، مقرَّبين ووزراء، التفوا حول عشاء فاخر. قال أحد المدعوين «لتدخل الراقصات».

وفي ملهى «القط الاسود» خرج الشاب خلسة دون أن يدفع ثمن ماكان قد طلبه.

ارتدت «نوشي» في الصباح ثوباً جديداً من الحرير الاسود يشد قدَّها النحيل شداً ويبرز نهدين اكثر تكويناً من باقي جسدها وكانت فخورة بهما.

الوقت متأخر وتلك هي «صديدة» تشرب وتضحك في مقصورة مع اثنين من الايطاليين العابرين. أما «صونيا»فهي تغني في الصالة حيث يوجد بعض الاتراك الذين اكتفوا بالتمتع بما يدور من حولهم وباحتساء البيرة لضيق ذات يدهم. قالت «نوشي» لصاحبها: «لماذا لم تَدْعُني أبداً؟ وكيف حدث أنك تفهم اللغة المجرية؟» فقال لها: «لقد زرت بلادك.» اخذت تراقبه بفضول يخالطه الشك. لقد رأته مرة في ملهى «القط الاسود» كما رأته يخرج مع «صديدة» يوماً في الرابعة صباحاًفسألته:

- هل انت حقاً فرنسي؟

- نعم. أجابها ضاحكاً. أما أنت فهنغارية. أراهن أنك ولدت في فيينا.

- كيف عرفت ذلك؟

قطع حديثهما النادل الذي جاء يخدم الطاولة. كانت «نوشي» ستقول له «شمبانيا» ولكن صديقها قال بحزم: «اثنان

من الكوكتيل.» فسألته: «ألن تدعوني إلى العشاء؟» . هز رأسه بالنفي. إبتعد النادل ووضع يده على ركبة نوشي الصغيرة قائلاً: « كيف وصل بك المطاف إلى هنا؟» أجابت بحدة وبخيبة أمل: «جئت لأن ذلك يسعدني»! أخذا يتجادلان كالأطفال ثم سألها:

- أين تركتِ الاخريات

- في «سميرن». ألم يخبروك بذلك أيضاً؟!

- كلا.

تلك هي حياتهن! يذهبن هكذا .. عشر أو اثنتا عشرة هنغارية صغيرة، ربما راقصات، بصحبة أم أو اثنتين احياناً يأخذن في الترحال بين ملاهي الشرق. انهن يجدن دائماً نفس الملاهي: «التابارين» أو «القط الاسود»؛ نفس المقصورات ذات الستارة وصاحب الملهى الذي يتقن عدة لغات لا يطلب منهن الشيء الكثير، وصلة رقص فيها أكثر مايمكن من العري ثم يبدأ العمل الحقيقي لهن: دفع الزبائن لمعاقرة الخمرة. سألته نوشي «لماذا لا تدفع لي ثمن عشاء؟» أجابها «لأني لا أملك مالاً.

رمقته بنظرة جاحدة. إنه في الاربعين من عمره لا يشبه احداً ممن التقتهم قبلاً حتى الآن. لقد رأت شخصيات مثله في الأفلام فقط. قد يكون فرنسياً فهو أشقر الشعر خفيفه تبدو فروة رأسه من خلاله، أشيب عند صدغيه، ضخم البنية. لم تستطع «نوشي» تحديد تفاصيل دقيقة في شخصيته ولكنه انسان متميز، يضع نظارة أحاديةالزجاجة (مونوكول) أعطت لشكله العام شيئاً من الصلابة والأرستقراطية، بزته رمادية اللون بسيطة ولكنها عليه ليست كباقي البزات، يرتدي دائماً

البزة ذاتها فقد يكون لا يملك غيرها!... مع ذلك فهو دائم الأناقة والشياكة. سألته: «ما اسمك؟» فأجابها: «برنار دو جونساك.» فقالت: «هل أنت من النبلاء؟ فاسمك يوحي بذلك!». لم يعلق على قولها إنما ابتسم وسألها:

- لماذا تركتِ الفرقة في «سميرن»؟

- لأنها ذهبت إلى سورية حيث يُمنع على الفتيات القصَّر الدخول إلى الملاهي. مرت «صونيا» تحمل صينيتها ولم يكن أحد قد لاحظ أنها انتهت من الغناء فقد واصل الموسيقيون عزفهم. أخذت «اسبازي» و«لولا» ترقصان معاً وبقيت يد جونساك على ركبة نوشي دون أن يحاول الوصول إلى حنايا ردفها الطفولي. صمتا حين أحضر النادل الشراب وأخذا يتراقبان بهجومية ومرح. قالت:

- إنني واثقة من أنه قيل لك عني شئ ما! أهو صاحب الملهى؟

- وماذا يمكن أن يكون قد قيل؟

- عن ليلة الأمس.

غدت ملامحها أدق ونظرتها أكثر حدة ثم تابعت:

- أخالك تظن أني لا أعلم لماذا دعوتني. لم تكن تكلف نفسك في السابق النظر إلي والآن الجميع مستعد لدعوتي الى الشمبانيا.... كل ذلك لأني مارست الحب مع «الغازي».

- هل هذا صحيح؟

- اسأل «صديدة» عن ذلك. هل راق لك ذلك؟

لم ينزلا الستارة وكانا يبصران الحلبة امامهما وقد تجمع حولها بعض الزبائن. قالت له:

- «اطلب لي عشاءً، ألا تريدذلك؟» هز رأسه بالنفي فتابعت: « أحقاً لا تملك نقوداً؟! ماهي مهنتك؟» ابتسم جونساك ابتسامة غامضة وقال لها: « ماذا تظنين؟» فقالت: « انك لست من أركان السفارة فأنا اعرفهم جميعاً، كما انك لست تاجراً». نظرت إلى يديه البيضاوين المنمقتين ولاحظت خاتماً من الماس والبلاتين ثم تابعت: « انتظر ... عرفت..»..

ثم اخذت تفكر وقد توقد ذهنها وقسا جبينها وقالت: « أنت تقوم حتماً باعمال خاصة، التجسس مثلاً أو المخدرات أو حتى....» لم يقل شيئاً وأفرغ كأسه في جوفه دفعة واحدة ولكنها تابعت:

- هل ستبقى طويلاً في انقرة؟

- لا اظن ذلك، ساغادرها غداً.

- في أي درجة تسافر؟

- في مقصورة النوم.

بدت عينا نوشي القاتمتان وكأنهما تغرقان في حلم ثم قالت:

- سيذهب «الغازي» أيضاً ولكن بعد أسبوع وستغلق الحانة. خذني معك.

ومرة أخرى لم يجب سلباً أو ايجاباً. أخذ ينظر احدهما إلى الآخر وفي الضجيج نُسج حولهما جو من المودة الشفافة جعلتهما ولدقائق يبتسمان دون كلام. سألته «هل تقبل؟» فقال: «ربما». قبّلته نوشي على جبينه ولم يَستغلَّ ذلك لضمها أكثر اليه. فقالت له:

- اسمع، إذا لم تجدّد طلب المشروب فسيحنق صاحب

الملهى. اطلب مشروباً إضافياً. وإذا رغبت أعيد إليك نسبتي المئوية .

كان يعلم أنها لا تستطيع مغادرة المكان قبل الإغلاق وأن عليه الانتظار ساعتين إضافيتين. سُمعت ضحكات «صديدة» المجلجلة وهي تستمع إلى النكات والكلمات الايطالية التي يعلمَّها إياها زبوناها. سأل جونساك الفتاة«ماهو عمرك؟» فقالت: «سبع عشرة سنة». انتابه الحزن والاضطراب وقال لها: «منذ زمن وانت....» فأجابت بحدة: «وأنا ماذا ...؟» فقال: « أنت تعلمين ماذا اعني...!». ضحكت فبدت أسنانها البيضاء الكبيرة ثم سألته: «وماذا يعنيك في ذلك؟» أجاب: «لا شيء!».

طالت ساعات الانتظار كانا خلالها كمن قبع في قاعة انتظار لا حياة فيها. بقيت عشر دقائق لإغلاق الملهى فذهبت نوشي إلى البار واتكأت عليه تحاسب المعلم وتراجع حساباتها مرطبة قلمها الرصاص بلعابها ثم عدَّت مالها واتجهت نحو غرفة ملابس الراقصات. عادت منها وقد حملت صرَّة تحتوي على ملابس رقصها وأدوات تجميلها.

التقيا على الرصيف فقد كان القطار سينطلق في السابعة صباحاً ومازال لديهما ثلاث ساعات من الانتظار. سألها جونساك: «اين تسكنين؟» أجابت: «لقد استأجرت غرفة لمدة شهر في الاعلى وأنت، هل تنزل في فندق «قصر انقرة»؟ ثم تابعت: «لن يسمحوا لي بالدخول الى فندقك كما انك لا تستطيع المجيء الى غرفتي، انتظرني إذن في الساعة السابعة على رصيف المحطة.» عانقته مرةأخرى وابتعدت راكضة.

لم يكن جونساك قد اشترى سوى بطاقة واحدة لأنه لم يكن متأكداً من مجيئها. ولكنه في السابعة إلا خمس دقائق رآها تنزل من سيارة أجرة وتعطي حمالاً حقيبة جميلة من الجلد الأصهب ليحملها لها. كانت هادئة، جاءت إليه كما لو كانا يعرف أحدهما الآخر منذ زمن. كان جسدها مشدوداً بطقم أسود وتلبس قبعة خضراء على رأسها. بدا فخذاها مرسومين بوضوح تحت الحرير الاسود بشكل جعل القنصل الايراني الذي كان مسافراً مع زوجته يلتفت اليها مرات عديدة كما كان الموظفون يتبعونها بنظراتهم.

حيَّته وهي تمنحه قبلة على جبينه ثم تراجعت خطوة لتنظر اليه فلاحظت الزّان الأبيض الذي يلبسه فوق حذائه اللماع. قال لها: « أنت انيقة جداً». أما هي فتوجهت نحو مقصورة النوم في القطار دون تردد وسألته: «أي رقم حجزت؟» قال: «الرقمين سبعة وتسعة.» كان الجو حاراً والشمس تحرق المحطة بلهيبها حيث الجميع يعرفون بعضهم بعضاً. قال لها: «هل جئت بشيء تقرئينه على الأقل؟» . خلعت سترتها وبقيت بقميص من الحرير الاخضر بلون قبعتها. كان نهداها يهتزان مع كل قلقلة للقطار. أخذت تنظر من النافذة بوجه وقور ثم سألته: «أحقاً لا تملك مالاً؟» تململت ثم اضافت : «ها أنذا أخاطبك بشكل رسمي. هل تحب ذلك؟» أجاب باقتضاب: «لا يهم ذلك». «إذن، تابعت، سأخاطبك كما يحلو لي... أتملك مالاً؟» أجابها: «القليل!» قالت: « أما أنا فيلزمني الكثير منه إذ أنه من الغباء أن نكون فقراء وسنربح الكثير منه.»

جمدت عيناها وهي تلفظ كلمة (فقراء) ولم يكن عسيراً تصور المكان الوضيع الذي ولدت فيه في أحد أحياء فيينا الفقيرة، أو الشقق المفروشة التي نزلت بها حين كانت ترقص في بلغاريا أو رومانيا. «اطلب لي زجاجة ماء معدنية!» قالت وهي تعلم أنه في مقصورات كهذه تُقدَّم الخدمة للمسافرين. قال لها: «نوشي» أجابت: «ماذا؟» قال: «لقد سألتك الليلة الماضية منذ متى وأنت....» أجابت بحدة: «وأنا ماذا؟» قال: «أنت تعلمين ما أعني.» فقالت وقد اعترى قسماتها الجمود: «أيهمك ذلك إلى هذه الدرجة؟» فقدت ضحكتها وبقيت زهاء ربع ساعة صامتة ثم سألته: «أتعرف أناساً في استانبول؟» أجاب: «نعم، الكثير منهم.» فقالت: «أناس اغنياء!» اجاب: «اغنياء وغيرهم.» فسألته «وكيف ستقدمني إليهم؟». انتظرت جواباً إذ أنها كانت تريد أن تعرف فقال لها: «لا أعرف... سأقول إنك....» قاطعته قائلة: «...صديقة! فقط! إنها الحقيقة».

لم يكن جونساك قد اقترب منها منذ الصباح وكان في بعض الاحيان يحاول ذلك ليقبلها ولكنها كانت تصده بقولها: «إن الجو خانق..» فمن شدة الحرّ ظهرت على قميصها الحريري تحت إبطيها بقع من العرق وبدا أنفها لماعاً من العرق. قال لها: «ما رأيك في الذهاب إلى مقصورة المطعم؟» ابتهجت لهذا الاقتراح وذهبا معاً كزوجين عاديين رغم فارق السن الواضح بينهما.

انطلق القطار بين الجبال الجرداء والحقول المحترقة بلهيب الشمس الحاد. سألته قائلة: «هل لك معارف اتراك في

استنبول؟ قال: «نعم، أتراك وفرنسيون وإيطاليون ويهود...» سألته: « كم تكلف شقة في "بيرا"؟ كثيراً؟» تذكرت كيف أنها مرة ، حين كانت في طريقها إلى القسطنطينية اضطرت الى النزول في فندق مفروش في "غالاتا" وكيف بُهرت بالحي الأنيق الواقع على رابية والمطل على «رأس الذهب» في "بيرا" حيث المنازل الجديدة ذات البوابات الحديدية المصقولة والشقق المضاءة. قال لها جونساك: « ليست لدي فكرة عن الاسعار» فقالت: « يجب ان تستعلم لأن ذلك مهم...» تناولت طعامها بتلذذ كما لو كانت دائماً تنزل في دارات فخمة ثم قالت له: « أيزعجك أن أكون معك؟» أجابها: « ابداً... ابداً؟».

أمضت نوشي فترة بعد الظهر بقراءة قصة باللغة الألمانية وتناولت الحلويات ثم قالت: «اخرج الآن من المقصورة وتنزه قليلاً لأنني سأبدل ثيابي». فتحت باب المقصورة بعد ربع ساعة من ذلك وكانت ترتدي ثوب نوم وفوقه مئزر ثم قالت: «لقد جاء دورك.» حين التقيا بثياب النوم بين السريرين مد جونساك ذراعه اليها وهمس باسمها فقالت له: « اسكت! أخلد إلى النوم فأنا متعبة جداً.» انسلّت تحت الغطاء ورفعته حتى ذقنها قائلة: « نم جيداً... أيقظني قبل ساعة من وصولنا.» لمرتين أو ثلاث فكر جونساك بالنهوض والذهاب اليها ولكنه كان يعلم أن ذلك غير مجد.. عندما استيقظا كان القطار على بعد ربع ساعة فقط من استانبول ولم يكن لديهما الوقت لارتداء ملابسهما كل على حدة فأخذا يتحركان في المقصورة الضيقة وكل منهما يحاول إيجاد ثيابه وحذائه. رأى جونساك صدر نوشي البض وفخذيها حين كانت ترتدي ثيابها وخلال

دقائق أصبحا جاهزين وحقائبهما في أيديهما بانتظار التوقف التام للقطار في محطة "حيدر باشا" ثم قفزا على الرصيف وضاعا في زحمة المحطة الواسعة.

كان المركب الذي سيقلهما الى الجهة الثانية من البوسفور، الى استنبول، منتظراً.استنبول التي بدت في الجانب الآخر بمآذنها القديمة وبناياتها الاسمنتية الحديثة. سار جونساك بسرعة مأخوذاً بنور الشمس، منبهراً بانعكاس ضوئها على ماء البحر في وجهه وتعلقت نوشي بذراعه بعفوية قائلة له: «جونساك! إنك تسير بخطى واسعة».

ـ ٢ ـ

نزل الاثنان بعد الظهر وعبرا حدائق (تقسيم) المشرفة على «القرن الذهبي». قطّبت نوشي أنفها المدبب وبدت فتحتاه كحبتي سكاكرسوداوين متجاورتين ثم قالت له بجدية وحزم: «يجب أن نسكن هنا!» استقرأ جونساك في تلك النظرة الجامدة وذلك الارتعاش في أنف نوشي شهوة أقرب منها إلى الحيوانية. أومأت الى البنايات الحديثة المطلة على الحديقة والبوابات الحديدية التي تسمح للمرء من خلالها برؤية الردهات المروية والمصاعد الأنيقة والشقق السكنية الفخمة؛ أومأت الى البانوراما الخلابة لمدينة القسطنطينية. كانت هناك امرأة على شرفة إحدى البنايات، تبدو وكأنها نجمة زرقاء توَشّي واجهة الدار البيضاء، وتمنح الشعور بسلام هادئ وطمأنينة ساذجة. أما في الحديقة فقد كانت المربيات المهفهفات ينزّهن الأطفال حولهن. ولكن نظر نوشي غدا ثابتاً

على تلك البقعة الزرقاء البعيدة، تنظر إليها بعناد وتقول في نفسها: « أنا من يجب أن يكون هناك على تلك الشرفة في ذلك المنزل الكبير.» رأى جونساك تلك المرأة بنظرة أخرى فقد كانت مجرد سيدة بثياب نومها الحريرية تتطلع بغموض ولا مبالاة نحو المدينة بينما كانت تطلي أظافرها.

اختار الاثنان غرفة في فندق "قصر بيرا" تقع في الطابق السادس من الجهة الثانيةعن البوسفور، الأمر الذي جعل أجرتها زهيدة. كانا قد ناما فيها ليلة، كل في سرير.حاول جونساك مرتبكاً الاقتراب من نوشي في الليل ولكنها قالت له وهي جالسة على السرير تنزع جواربها وتداعب أطراف قدميها التعبتين «إني متعبة!» قرأ في عينيها مللا حقيقياً فأخلد إلى النوم وعندما أفاق في الصباح كانت نوشي في الحمام تجرجر نعلها الجلدي على أرضيته.

سألته طلّبَ شراب الشوكولا وطفقت تكمل ارتداء ملابسها بشيء من اللامبالاة والحياء معاً، لم تكن تغطي صدرها الذي غسلته بالماء البارد وهي تعصر الاسفنجة المبللة بالماء بين نهديها وإنما بدت نظرتها ترسم دائرة حظر حول شخصها كان على جونساك أن يبقى خارجها. ارتدت ثيابها بحضوره كما ترتديها امام رفيقاتها في الملهى، نصف عارية، تصلح زوجاً من الجوارب مقطبة الجبين قائلة: «ماذا سنفعل اليوم؟» استعملت لفظة "نحن" ببساطة فيظن السامع أنهما متزوجان منذ زمن بعيد رغم أنه حتى الآن لا توجد بينهما أية علاقة: مداعبة عابرة على ركبتها الصغيرة، قبلة أو اثنتان على جبهتها. أجابها قائلاً: « يجب أن أذهب الى السفارة..» ودون أن تتوقف

عن إصلاح جوربها رمقت رفيقها بنظرة رضا وإنشراح وقالت: «أفهم ذلك. الى السفارة الفرنسية؟» أجابها: «طبعاً».

لم يكن جونساك يقدر على ارتداء ملابسه امامها فاغلق باب الحمام على نفسه بالمفتاح وحين انتهى من ذلك خرج منه وهو بكامل أناقته والمونوكل على عينه وخداه محلوقان، فقالت له: «أتعرف أن المونوكل يناسبك؟» ثم ضحكت من الارتياح الذي بدا على وجه رفيقها. أخذا يتبادلان النظر خلسة ويضحكان رغماً عنهما إن التقت نظرتهما. إنهما يتصرفان كالاطفال، فجونساك يضحك من تصرف نوشي وكأنها طفل يلعب دور الراعي الناضج المتحكم في الكبار اما نوشي فهي تضحك من الثقة التي يبديها جونساك بتمثيله دور الرجل الصارم والمتزن.

سارا جنباً الى جنب في شارع بيرا العريض متوجهين إلى الطريق المنحدر المؤدي إلى السفارة الفرنسية. تحتلّ السفارة بناءً قديماً وسط حديقة هادئة. كان هناك بستاني يسقي الأجمات فيها فجلست نوشي على مقعد قائلة لجونساك: «اذهب فأنا انتظرك هنا.» تبعته بنظرها وهو يدخل إلى الردهة ويمر من أمام الحراس دون توقف ثم يصعد سلم الشرف. عاد جونساك بعد نصف ساعة تقريباً فوجدها ما تزال في مكانها. تعلقت بذراعه بحركة عفوية قائلة: «يجب أن نكسب الكثير من المال.» كانت تتلفت حولها تتأمل الافياء التي تعم الحديقة والتي تظلل الباحة الخارجية ذات الأعمدة.

هاهما الآن يسيران بهدوء في الشوارع المقفرة فقد شارفت الساعة على الرابعة صباحاً وبدأ شحوب السماء يبشر

ببزوغ الفجر. قالت له بهدوء: «إن اصحابك غير ذوي شأن، هل تراهم دائماً؟» أجابها: «احياناً» فقالت: «اعترف أنك تراهم يومياً!» كان ذلك صحيحاً ولكنه ارتبك ونفى قائلاً: «كلا! فأنا لا أراهم كل يوم.» شعر فوراً أنها لم تصدقه.

في السابعة مساء توجها معاً نحو المدينة القديمة بشوارعها الضيقة فوصلا الى مطعم "أفرونوس" الواقع في الجانب الآخر للميناء وراء سوق السمك. نزلا درجتين من السلم فوصلا إلى قاعة منخفضة ذات جدران مطلية باللون الاصفر تتضد فيها عشر طاولات وواحدة طويلة عليها مختلف أصناف الطعام. شاهد جونساك أصحابه فوراً فتوجه نحوهم وافسح هؤلاء مكاناً بينهم للقادمين الجديدين. كان جلياً أنهم قلة يلتقون كل مساء في نفس المكان. أضفى وجود نوشي بينهم شيئاً من الجمود على تبادل الحديث وكانوا يتفوهون بجمل تافهة

- هل ستعود إلى أنقرة؟

- ليس قبل الشتاء القادم. ألن يأتي سليم بك؟

- إنه يعاني من آلام المفاصل، سنراه فيما بعد في بيرا.

لم يكن الجو بأحسن من ذي قبل خلال تناولهم الطعام فقد قُدِّم لهم المحار المقلي وورق العنب المحشو ثم السمك الحار. كانت الطاولات عارية وكؤوس العرق سميكة ومغشاة. أخذت نوشي تراقب المجموعة التي أخذ عددها بالازدياد. إنه موعد يومي إذن! انضم اليهم رجلان آخران مما اضطرهم الى التراص أكثر لإفساح مكان لهما بينهم.

قدم جونساك أحدهما لها بقوله: «توفيق بك» وهو يشير

الى الاصغر سناً ثم التفت الى الآخر، رجل في الاربعينات من عمره ذو شعر أشيب وابتسامة مصطنعة؛ تقدم وانحنى امام الفتاة الشابة وقبل يدها؛ فقال جونساك «أوسون، صاحب مصرف». ردّت قائلة: « لقد التقينا من قبل.» لقد تذكر "اوسون" لقاءهما ولكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن ذلك فتابعت قائلة: «في "كونستانزا" في رومانيا لدى "مكسيم". لم يبدُ عليها الارتباك بعكسه. كانت نوشي تبتسم ابتسامة سمحاء وهي محور جلسة عشاء استمر هكذا، كل يأكل ما يحلو له ويدفع ثمن ما طلبه.

اما وقد أصبحا في الفندق بادرته نوشي قائلة: «ماذا يفعل أوسون» أجابها: «إنه من عائلة غنية وقد تعلم في جنيف قبل الثورة ثم أصبح معاون مدير مصرف تركي وقد أعلن المصرف إفلاسه في الاسبوع الماضي فقد أخبرني بذلك حين تحدثنا على انفراد». فقالت باستهزاء: «لم أستطع جعله يدفع لي الشمبانيا في كونستانزا.»

هكذا هو حالها في كل مكان. في بوخارست، صوفيا، سميرن، في أنقرة واستنبول. هنا وهناك نفس الملاهي، نفس الراقصات ونفس الزبائن. هناك نوعان من الزبائن الذين تكشفهم نوشي من النظرة الاولى: أغنياء يأتون للتسلية، يطلبون فتاتين أو أكثر على طاولاتهم، يأكلون ويشربون دون حساب؛ آخرون، مثل اوسون، مثل اصحاب جونساك، عاطلون يأتون كل مساء ويقبعون في زاوية جانبية لا يطلبون إلا الرخيص من المآكل والمشرب. قالت له بحزم: «أصدقاؤك ليسوا ذوي شأن» فذلك ما دعا اوسون الى الاحمرار عندما

لمحّت له بلقائهما السابق وما جعله يرفض طلب الشمبانيا لنوشي رغم إصرارها على ذلك: كان يعاني من الفقر. ثم اضافت: «إنهم جميعاً مفلسون أليس كذلك؟» أجابها: «لقد مر الأتراك بأزمة مخيفة!» هزّت كتفيها قائلة بحدة: «الرومانيون، البلغاريون، نحن ... ماتقوله لا يعني أي شيء.» كانت تمقت الفقر والفقراء ربما لأنها تتذكر طفولتها دائماً! ألم تتفتح عيناها على الدنيا في زمن كانت فيينا تتضور جوعاً فيه؟ استطردت قائلة لجونساك: «يجب أن تكون قد تعرَّفت على شخصيات مهمة من خلال علاقتك بالسفارة!»

سارا معاً جنباً إلى جنب. أخذت نوشي تفكر بحصيلة ماحدث خلال الليل: كانوا سبعة أو ثمانية رجال عند "أفرونوس" ألِفوا وجودها بينهم وتصرفوا معها بشكل عادي. جلس أوسون بعيداً وعلى وجهه ابتسامة ساخرة رغم أنها تنم عن الاستسلام. أما مفتي بك فقد جلس قبالته يلعب بسبحته ذات الحبات المصنوعة من حجر الكهرباء الصدئ اللون، إنه سليل شخصية مرموقة في تركيا القديمة ورث عنها قصوراً على البوسفور واراضيَ شاسعة اما الآن فهو يعيش في غرفة مفروشة منفقاً بتقتير ما تبقى له من مال ومع ذلك فالجميع يعتبرونه سيدا كبيرا. إنه دائماً يتحرك وبرفقته شاب نحيل يبدو عليه المكر يلبي طلباته، وعندما سألت نوشي جونساك عنه قال لها: «إنه شاب ألباني قاطع طريق قديم استطاع مع حفنة من الرجال هزيمة أفواج من الجيش النظامي خلال الحرب وهو يعيش اليوم مع مفتي بك.» سألته: «هل يعيش معه بصفة خادم؟» فأجابها: «خادم وغيره، فهو يتبعه أينما ذهب.

يرفأ له ثيابه ويغسل له حوائجه ويحضّر له سريره إنما هو ليس بخادم.»

كان هناك في مطعم "أفرونوس" ايضاً توفيق بك، صحافي دون ماض وشاب آخر ذو شعر كثيف عرّفها على نفسه بأنه نحات وسألها إن كانت تحب تعاطي الحشيش. كانت اللغة المتداولة بينهم هي الفرنسية تتخللها بعض الكلمات باللغة التركية التي كان يجيدها جونساك. كانت ليلة غريبة كل الغرابة بالنسبة لها فقد التقت اشخاصاً خارج نطاق عملها ما كانت لتراهم، لولم تكن مع جونساك، إلا حول الطاولات تعاقر واياهم الشراب وتجعلهم ينفقون المال عليها.

«ماذا سنفعل؟» سأل أوسون عندما وصل الجماعةإلى سوق السمك. كانت الساعة العاشرة وكانوا ينظرون الى بعضهم البعض ككل مساء مدركين انهم سيفعلون ما يفعلونه كل مساء غير قادرين على فعل شيء آخر. «ماذا لو تعاطينا الحشيش» اقترح الالباني فلم يجبه أحد.

رأتهم نوشي يتهامسون بأمكنة مختلفة يذهبون اليها؛ قدم الالباني اقتراحاً فقيل له: «أغلقه البوليس منذ ثلاثة ايام.» «وماذا عن "چالاتا" » – «مغلق ايضاً» . كانت الجماعة تتسكع على الطريق بين أناس اتراك يمرون من حولهم بثيابهم التقليدية فقالت نوشي بتأفف «هل ستطول هذه المناقشة؟!» ثم اقترحت شيئاً أخذ على اثرها مفتي بك يفتش في جيوبه ويعطي قدراً من المال أضاف عليه جونساك وأعطياه للألباني الذي ذهب على الفور....

كان الجو ساخناً، تركت الجماعة المدينة القديمة بازقتها

الضيقة وتوجهت نحو الجسر حيث أوقفت سيارة أجرة تقلّهم الى بيرا. كانت الراقصات في ذلك الوقت ينهين زينتهن ويتأهبن للجلوس الى الطاولات بينما كان العازفون يدوزنون آلاتهم الموسيقية. بدأت الحياة الليلية تدب في الانحاء وغمرت الشارع العريض في بيرا بشكل غوغائي. شباب وشابات يسيرون في الطرقات جماعات وأفراداً يقطعون الشارع جيئة وذهاباً، يتوقفون حيناً ويمشون الهوينا حيناً آخر فحذت الجماعة حذوهم. كان مفتي بك يعرف الجميع ويصافحهم أما نوشي فكان قد أتعبها الكعب العالي وملّت من المرور على نفس الطريق بالاتجاهين ورؤية نفس الوجوه فهمست بجونساك قائلة «ماذا ننتظر؟ لنذهب!» ولاحظت أن الالباني قد اختفى فقالت لنفسها: «لقد ذهب لإحضار الحشيش!»

اختفى الالباني في طرقات «توب - هاني» الضيقة مدةً من الزمن ثم عاد وأشار خفية الى صرّة صغيرة بنية اللون يحملها في باطن يده. بدأ الجماعة يتجادلون في أمر المكان الذي سيتعاطون الحشيش فيه فاقترح أحدهم قهوة شعبية صغيرة فوافق الجميع وتوجهوا الى زقاق ضيق شديد الانحدار ذي سلم حجري على جانبيه يسكن على طرفيه أناس فقراء أخرسهم العَوَز. ولكن الألباني قال وهو يشير الى نوافذ مغلقة: «إنه مغلق».

لم يكن قد حان وقت الذهاب الى الملهى فقد تابعت الجماعة سيرها في الطرقات السيئة المحفورة ووصلت الى الشارع العريض، أخذت نوشي خلال سيرها فيه تراقب

واجهات المحلات والملاهي المضاءة فقرأت «القط الاسود» «تاباري» وغيرهما كما سمعت صوت دوزنة الآلات الموسيقية تنبعث منها. توجهت الجماعة بعد ذلك إلى قبو احدى العمارات الحديثة حيث كان يسكن سليم بك الذي بقي في منزله بسبب آلام المفاصل التي يعاني منها. كان منشغلا بتحضير القهوة في مطبخ ضيق، رجل بدين يرتدي زياً مبتذلاً ولكنه ما إن رأى امرأة معهم حتى اختفى لحظة وعاد مصلحاً هندامه.

قُدّم جونساك اليه على انه مستشار في السفارة الفرنسية يعشق تركيا ويشغف بسحرها المميز. أحس بالغبطة من هذا التقديم، ظهرت على اساريره رغم صرامته المفتعلة والمونوكل الذي كان يضعه على عينه. لقد كان رأي نوشي به غير ذلك ولكنها انتبهت إلى أنه كان يشارك بأحاديث خافتة مشبوهة كانت تدور في زوايا الشقة.

. لم تكن جلستهم جلسة دعارة، فقد كان بعضهم مستلقياً على الارائك أو جالساً على الأرضية يقول أحدهم الشعر باللغة التركية او الفرنسية ويرد عليه آخر بأبيات اخرى، لم يوجه "اوسون" الحديث أبداً الى نوشي ولكنه لم يَكُفَّ عن تأملها. كانت تبتسم له حين يلتقي نظرهما وقد ضحكت كثيراً حين انقلب الكأس من يدِ توفيق بك الذي كان متلهفاً على خدمتها؛ أما النحات فقد غنّى مرثاة شعبية. اقترحت نوشي التي لم تكن مرتاحة في جلستها الذهاب للرقص ووقفت وكأنها تريد الذهاب ففاجأت بعضهم خلف ستارة منهمكين بعَد النقود. وافقها الجميع على اقتراحها ورافقوها عائدين الى الشارع

العريض من جديد ثم انتهوا إلى ملهى "تابارين" حيث لم يكن هناك سوى الراقصات وزبونين اثنين.

وجدت نوشي نفسها هنا زبونة لا راقصة. عُرضت عليها لائحة الخمور فأبعدتها ونظرت الى النادل ثم سألته: «هل انت هنغاري؟» أخذت تتكلم معه بلغة بلادها وتناقش معه الاسعار ثم طلبت زجاجة خمر لا يتعدى ثمنها أربعين فرنكاً». أما جونساك الذي لم يكن قد اعتاد بعد على وجود رفيقة دائمة له فكان يتصرف بارتباك ويعجب من كل حركة تقوم بها الفتاة. لم تعجب نوشي الخدمة في هذا الملهى؛ فالمعلم بطيء الحركة والراقصات ينسحبن لعدم وجود الزبائن، والأغطية قذرة وطلبات الزبائن تؤَمن من الخارج في أغلب لأحيان.

ماذا فعلوا ايضاً؟ .....لا شيء. تابع النحات تعاطي الحشيش الذي كان يضيفه إلى تبغ لفافته.. تثاءبت نوشي بملل.. اقترح أحدهم القيام بنزهة في مدافن الايوبيين وخرج الجميع ... هذا كل شيء.

كان الصمت مطبقاً في غرفتهما في الفندق. لم يشعلا النور إذ أن ضوء الفجر كان يمر من خلال زجاج الغرفة. اتكأ جونَساك الى المنضدة ونظر إلى رفيقته وهي تخلع فستانها وقال: «نوشي» اجابته: «ماذا؟» قال: «اريد أن اسألك...» فقالت بصبر فارغ: «تسألني عما أود عمله!... وأنت؟» لم يجد لها جواباً فصمت. جلست على حافة السرير تنزع جواربها فأخذ يتساءل «أهو الذي اصطحبها أم أنها لحقت به؟ كيف حدث ذلك؟ ماسبب وجودهما معاً في غرفة واحدة رغم أنه لا علاقة تربطهما؟ أهي عشيقته؟ لماذا أجاب بالأيجاب حين سأله

رفقاؤه عن ذلك؟ انتابه شعور بأن ذلك لن يحصل أبداً فسألها: «ألا تحبينني؟» أجابت: «ماذا تعني؟...استدرلحظة من فضلك». استجاب لطلبها وعندما سمحت له بالنظر من جديد كانت قد ارتدت البيجاما فبان ردفاها وفخذاها أكثر نحولاً من خلال البنطال فقالت له: «اذا كنت قد مللت صحبتي فقل لي ذلك الآن لأنه لا يسبب لي أي إحراج».

كلاهما كان متعباً؛ ذلك التعب الذي يجعل القلب مفعماً والاطراف نشوى. استلقت نوشي على السرير ودفنت رأسها في الوسادة ثم نظرت اليه وقالت: «لم أكن أريد أن أزعجك بالحديث عن أصدقائك غير المهميّن! من دفع الحساب في مقهى "تابارين"؟ » أجابها: «أنا!» قالت له: «هل رأيت! لقد أعطيت حتماً حتى المال ثمناً للحشيش؟!» قال: «نعم، ودفع مفتي بك قسماً منه.» صمتت نوشي. أما جونساك فكان متردداً في أن يقترب منها لعلمه الأكيد بردّة فعلها السلبية لذلك قال لها: «اسمعي يا نوشي....» أجابته: «اني منصتة..» قال: «يجب عليك أن تعلمي أني لا استطيع العيش معك دون...» أجابته بصوت واهن: «اسكت ارجوك. إن تحدثت في هذا ثانية فستكون النهاية بيننا! إنك لا تفهم... فأنا أستفظع الرجال كلهم... أو بالاحرى...» وأسندت رأسها على يدها ثم تابعت: «إنني لا أمنعك من معاشرة نساء غيري إن انت أردت ذلك.»

لم يكن قد بدّل ثيابه بعد فما زال المونوكل على عينه، بنطاله مكوي جيداً والزّان الأبيض يعلو حذاءه. بدا كإنسان متميز واثق من نفسه ولكن ذلك لم يخدعها؛ وهل خُدعت من

قَبل قط؟ نظرت إليه نظرة ارتياح وتسامح وقالت لنفسها: «إنك لأنيق!» ثم اتخذت وضعاً جدياً كما لو أنها ستبحث في أمر جلل سألته: «ماهو عملك الحقيقي في السفارة؟» عندئذ امتعض وجهه واحمر ولم يجب فأردفت: «سأعرف الحقيقة إن عاجلاً أم آجلاً!» عندئذ قال لها: «اني اؤدي بعض الاعمال والخدمات.» اجابت بحزم: «خدمات صغيرة ... وكم يدفعون لك لقاء ذلك؟ » أجاب: «الف فرنك شهرياً». كان يود لو أعطاها رقماً خيالياً ولكن الحقيقة خرجت من فمه عنوةً فقالت: «فقط!» أسرع ليقول: «كلا! لدي مصادر مالية أخرى.» فخفضت نوشي ببصرها الى حذائه التي لا يمكن الخطأ في أنه حذاء قديم يكسبه الران الابيض الذي يعلوه شيئاً من الحداثة. وفكرت في أنه كذلك ينسجم مع عالمه: مع مطعم"افرونوس" مع أوسون معاون مدير المصرف المفلس، مع مفتي بك الذي دمَّرته الثورة.... سألته مجدداً «جونساك! هل هذا هو اسمك الحقيقي؟!» فضَّل ألا يجيب ولم تكترث ثم قالت له: «نم الآن فالشمس قد أشرقت وإذا كنت لا تريدني معك بعد الآن فيمكنك إعلامي بذلك في الصباح... أو قل هذا الصباح ... كم انا تَعِسَة!» أغمضت عينيها ودخل جونساك الى غرفة الحمام ليخرج منها مرتدياً مئزره وبيجامته. انحنى على سرير نوشي ونظر اليها. بدت له نائمة فانحنى أكثر فأكثر ليطبع على جبينها قبلة ولكنها قالت شبه نائمة: «إن أصحابك تافهون!!»

- ٣ -

وجد جونساك حين أفاق من نومه سرير نوشي خاوياً ودافئاً من حرارةالشمس. لزمته بعض اللحظات ليستعيد في ذهنه فكرة الحياة المشتركة مع نوشي التي يحياها منذ بضعة ايام. انتصب واقفاً مذهولاً والقى بنظرة متفحصة وجلة لدرجة أنه لم ير نوشي واقفة في ركن مظلم من الغرفة. زفرت زفرة جعلته يرتبك ولم يجدكلاماً غير أن يقول لها: «لقد ارتديت ملابسك!؟» أجابته: «إنها الظهيرة!» كانت بكامل هندامها الأسود منتصبة أمام المرآة تصلح قبعتها الخضراء على راسها. ضحكت منه وقالت: «أتخشى أن أرحل عنك!؟» لم يجب على سؤالها وإنما سألها بحنق: «الى أين أنت ذاهبة!؟!» كانت ضوضاء المدينة تسمع بوضوح من خلال النافذة المفتوحة على مصراعيها. كانت نوشي في قمة نشاطها أما جونساك فلجأ الى شرب قدح من الماء ليخفي حنقه. آجابته

يهدوء: «لدي موعد مع مفتي بك». فقال بسرعة وانفعال: «كيف؟ مع مفتي؟ ومتى أعطاك هذا الموعد؟!» أجابته بنفس الهدوء : «بالأمس، عندما كنا نسير معاً في شارع پيرا وراءكم. يبدو انه يمتلك تحفاً تركية قيّمة يريد أن يطلعني عليها. والنحات كذلك دعاني للذهاب أليه؛ فهو يسكن ضمن مسجد قديم على ضفاف البوسفور.» كانت تحدثه بازدراء لا مبالية؛ لم يُعقّب ولكنه انتظر أن تدير ظهرها ليخرج من سريره ويرتدي مئزره فتابعت قائلة: «أظن أنك ستذهب إلى السوق! ستلتقي هنا بعد الظهر.» كانت قد تخطت عتبة الباب عندما عادت واطلت برأسها من فتحته قائلة باندفاع: «لا تكترث كثيراً لموضوع مفتي بك فهو ليس خطراً.»

نزل جونساك بعد ربع ساعة من الفندق وأخذ يتسكع في شوارع پيرا ثم يمم شطر السفارة. كان مفتي بك يسكن قريباً، في البناء نفسه الذي يسكن فيه سليم بك البدين، ذلك الذي أمضوا عنده قسماً من الليلة الماضية. كاد أن يذهب اليه ولكنه عدل عن ذلك خوفاً من سخريتهم منه فتابع سيره في الطرقات المزدحمة مضطراً أن يقفز الى الرصيف عدةمرات خوفاً من الحافلات الكهربائية. اصطدم مراراً بالمارة وفي كل مرة كان يعتذر متلعثماً. مشى مقطب الجبين، زائغ النظرات، متشنج اليدين؛ ماذا سيحدث معه؟ نعم... ماذا يمكن أن يحدث وكيف وصلت الامور معه إلى ماهي عليه؟ هل كان هو السبب في اصطحاب نوشي معه والعيش معها أم أنها كانت السبّاقة الى التعلق به؟ لماذا تسأل عن اسمه وثروته؟ وصلت به كل هذه التساؤلات الى نتيجة أعجبته وأرضت غروره: فهي

حتماً تعتبره مغامراً .. ألم تشك حتى في إسمه!!!

عبر جونساك حديقة السفارة ومرَّ امام الحراس ثم قرع باباً صغيراً في الطابق الثاني ودخل الى مكتب المستشار بقامة مديدة وهندام كامل ومونوكل على عينه. مد يده بمودة ممزوجة بالاحترام وصافح شاباً جالساً وراء مكتب من خشب الاكاجو ولم يجلس إلا بعد أن دُعي إلى ذلك. اعتذر منه المستشار بأدب قائلاً: «سأكون معك بعد برهة.» أنهى الشاب عملاً كان قد بدأه واستعمل الهاتف بينما كان جونساك جالساً بصمت وقبعته على ركبته. جمع المستشار أخيراً بعض الأوراق ووضعها في مصنف أصفر أعطاه لزائره قائلاً : «ستعرف بعد قليل... هناك صحفي جاء خصيصاً من باريس يرغب ان يقابله «الغازي». سأل جونساك: «ومتى سيأتي؟» أجابه المستشار: «إننا ننتظره بين ساعة وأخرى.. أرجو أن تستطيع تأمين مقابلة له.» وككل صباح، فتح المستشار علبة السيجار فأخذ جونساك أحدها قبل أن يخرج.

انه إذن مجرَّد مترجم! تلك هي مهمته!! لم يكن يعمل بالتجسس او يتاجر بالمخدرات او يسرقها. مترجم لدى السفارة! مكلف بخدمات صغيرة يقوم بها للسلطات التركية. إنه الآن متوجه إلى الولاية اي إلى مقر الشرطة فغالباً ما يذهب اليه. إنه يعرف ممراته المعتمة، كل الأبواب وجميع المكاتب. دخل أحد هذه المكاتب الباهتة والتافهة وحيا رئيس قسم الاجانب وجلس: إنه يستطيع أن يفعل ذلك هنا دون دعوة. ضغط المفوض على جرس فدخل على الأثر حاجب يحمل فنجانين من القهوة التركية. سأل جونساك المفوض عن

الطقس في أنقرة فأخبره أنه اكثر حرارة من استبول ثم اخبره بقرب وصول "الغازي" وعن جاهزية يخته لاستقباله في ميناء حيدر باشا.

كان المفوض رجلاً في الخمسين من عمره ذا شعر رمادي، يرتدي هنداماً جاهز الصنع قاتم اللون وربطة عنق منمقة. لا شيء في مظهره يوحي بأنه تركي سوى سبحة ملتفة حول معصمه يعد حباتها أثناء الحديث. فتح جونساك المصنف الاصفر وناوله للمفوض الذي ألقى نظرة على محتواه. كانت فيه أوراق خاصة بالصحافي حديث الوصول إلى تركيا والتي يطلب فيها ورقة إقامة، بطاقة سكة حديد وبطاقة حسم لأجور البرقيات. سأل جونساك: «أتظن أن مصطفى كمال سيقبل استقباله؟»، أجابه المفوض بحركة غامضة ودية وقال له: «عد إلي في الغد». بدا المفوض وكأن لديه شيئاً آخر يقوله ولكنه قدم لفافة تبغ لجونساك وتابع التسبيح جالساً برخاء على مقعده ثم قال له: «لقد كان لي لقاءٌ مع مدير الشرطة هذا الصباح وأنا سعيد جداً بقدومك.» مرت لحظات صمت رأى جونساك خلالها عبر النافذة عنصري شرطة في الباحة الهادئة والمشمسة يقودان سجيناً مكبلاً بالاغلال ثم استدار إلى المفوض حين سمعه يقول له: «أظنك تعرف راقصة هنغارية! هوذا ملفّها بين يديَّ.»لم يظهر على وجه جونساك الخبير بالامور في تركيا أي تعبيرفتابع المفوض قائلاً: «أظنك تعلم أنه منذ شهر تقريباً لم يعد يحق للاجانب ممارسة بعض الأعمال في تركياكالراقصات والحلاقات وخبيرات التجميل وما شابه. أما الفتاة التي اتحدث معك بشأنها فقد تركت أنقرة في الوقت

الذي كانت السلطات توقع فيه على قرار إخراجها من البلاد.»
حاول جونساك أن يتماسك إذ أنه شعر بامتقاع لونه وسأل: «وماذا لو لم تعد تمارس هذه المهنة؟!» أجابه المفوض وقد لاحظ ارتباكه: «ذلك أدهى فقد وجهت السؤال ذاته للسيد مدير الشرطة وقد أفادني أنه على الاجنبي الذي يعود للإقامة في تركيا أن يثبت حيازته على مورد مادي يكفي لذلك.» كان جونساك يعلم أن جهاز الشرطة التركي ساهر ومتيقظ، يراقب كل أجنبي من لحظة دخوله البلاد كما انه يعلم أن هذا الجهاز قد رصد تحركاته مذ غادر أنقرة برفقة نوشي وعلى علم بأنه يقاسمها الغرفة في فندق"قصر بيرا". ماذا يمكنه أن يفعل هنا؟!فهو ليس سوى مستخدم بسيط في السفارة! نزع المونوكل عن عينه مرتجفة الاهداب ومسح وجهه المتعرق. أضاف المفوض قائلاً: «لقد سألت بالطبع السيد مدير الشرطة عن إمكانية تسوية أمر كهذا. في الماضي لم يكن هذا الامر موضع بحث أما الآن فأنت تعلم بالطبع جدية "الغازي" وحزمه في تطبيق الأنظمة.» لم يبد جونساك ردة فعل تُذكر فقد كان في موقع حرج ولكنه شعر آنذاك بالرباط الذي يوثقه إلى تلك الراقصة وقرر بينه وبين نفسه ضرورة الرحيل معها والانتقال مرة اخرى إلى بلد آخر. كان المفوض وكأنه استقرأ افكار جونساك في غفلة منه. كان هادئاً ومهذباً معه وتكلم بصوت رخيم خالٍ من الحدة وقال: «لقد استنتجت من حواري مع السيد المدير،... (رفع جونساك رأسه وبدا مستاءً)... أن هذه الفتاة ستتمكن من البقاء في تركيا إن هي اقترنت قانوناً بشخص له الحق في الاقامة فيها.» وقف المفوض بعد ذلك

ومدّ يده مودعاً ضيفه ثم سار معه إلى الباب مضيفاً : «على كل حال فإن قرار طرد هذه الفتاة لن يوضع في التنفيذ قبل خمسة عشر يوماً أو ثلاثة أسابيع.»

سار جونساك تحت شمس تحجبها الغيمات احياناً ولم يعد يعرف موقعه فقد بدا له كل شيء غير واقعي. أين هي الآن؟ في شقة مفتي بك حتماً تحتسي القهوة التي أعدّها الألباني أو ... رغم ذلك لم يستبعد جونساك من رأسه فكرة الزواج التي أوحى له بها مفوض الشرطة. كان الجو خانقاً والطرقات مزدحمة باهلها، سلك بين الحمالين والحمير، بين الاكياس وصناديق البضاعة المنتشرة على الأرصفة خارج الدكاكين واتجه إلى غرفته وقد صمم أن يكلمها بهذا الشأن. أسرع الخطى ووصل إلى الفندق واتخذ لنفسه مقعداً على البار. لم يكن قد تناول غداءه بعد واكتفى بشرب العرق وقزقزة اللوز.

دقت الساعة الثانية ونوشي لم تعد بعد. بقي جونساك في مكانه حتى الساعة الثالثة يحتسي الكأس تلو الكأس حتى أحس بثقل رأسه. حيّاه أحدهم فلم يرد التحية فكلمّه هذا قائلاً: «مابك؟ هل أنت بخير؟» ارتعش جونساك واستدار ليرى أمامه "الكونت ستولبرغ" ترافقه فتاة شابة ترتدي اللون الأبيض. كان جونساك غارقاً في أفكاره لدرجة بدا وكأنه استفاق لتوه فرأى الفتاة تكتم بسمة لاهية فسأله "ستولبرغ": «هل انت بانتظار أحد ما؟» أجابه باقتضاب: «كلا!» فقال ستولبرغ: «ما رأيك باحتساء كأس معنا!» ثم قدم جونساك والفتاة احدهما للآخر قائلاً: «برنار دو جونساك من السفارة الفرنسية...الآنسة ليليا باستور من أجمل صبايا بيرا.»

لم يكن بار هذا الفندق مختلفاً عنه في الفنادق الاخرى الكبيرة مع فرق واحد وهو أن جدرانه مزينة بالسجاد الشرقي وارائكه وثيرة ومفروشاته مصنوعة من خشب الاكاجو غامق اللون. سأل ستولبرغ جونساك: «هل التقيت باصحابك منذ وصلت من أنقرة؟» أجابه جونساك: «نعم، لقد خرجنا معاً الليلة الماضية.» كان ستولبرغ يعرفهم جميعاً فقد كان ضمن المجموعةوليس جزءاً منها . إنه رجل طويل القامة أشقر شاحب اللون في العقد الثالث من عمره، نجل سفير سابق للسويد ورث عنه منزلاً ريفياً على البوسفور. لم يكن لديه مورد ثابت انما كان يستطيع العيش دون عمل؛ كثيراً ماكان يتردد على رجال متنفذين في البلاد، سأل جونساك قائلاً : «أما زال وزن سليم بك آخذاً في الإزدياد؟!» أجابه: «دائماً في إزدياد.» أضاف ستولبرغ: «وهل تعاطيت الحشيش؟» ضحك وقال: «قليلاً!» ثم نظر إلى الفتاة وسألها: «وأنت، هل جربت ذلك يا آنسة؟» . كانت الفتاة مديدة القامة يلفّ جسدها طقم من القطن الابيض من صنع باريسي؛ لم ينتبه لكونها جميلة أم لا ولكنه شعر بالأناقة والبذخ في مظهرها. قال ستولبرغ وهو ينظر إلى ليليا:

- ماذا لو اجتمعنا الليلة عندي؟! هل يسمح لكِ والداكِ بذلك؟

- أنت تعلم أنهما يسمحان لي بالقيام بما أريد فقد أصبحت في الثالثة والعشرين من العمر!

- سوف تُسرِّين بتمضية ليلة تركية حقيقية. أما أنت يا جونساك فعليك أن تبلّغ زملاءك بذلك. لتكن السهرة يوم الجمعة المقبل وعليك فقط إحضار العازفين.

وصلت نوشي في هذه اللحظة وتوجهت فوراً إلى حيث يجلسون. تقدمت منهم بخفة وبدون تردد منتظرة أن يقدمها جونساك إليهما فقدّمها بقوله: «الآنسة نوشي... زميلة». جلست ثم طلبت شراباً مثلجاً وأخذت تتفحص حقيبة يد ليليا ذات المقبض البلاتيني الموضوعة على الطاولة. وبعد وقت قصير كانت نوشي تتجاذب أطراف الحديث بطلاقة مع ستولبرغ وليليا دون أن يستطيع جونساك إيجاد تحليل لذلك.

تحدثتا عن آخر اخبار الموضة وزوّدت ليليا نوشي بعنوان الخياط الذي يخيط لها ثيابها ثم تواعدتا على اللقاء في الغد وقت الغداء. غادر الاثنان الفندق وبقي جونساك يحاول العودة إلى ما كان عليه قبل وصولهما. نظر إلى نوشي فبدت الكلمات التي قالها المفوض أقل خطورة بالنسبة إليه خاصة وأنه كان قد احتسى ستة كؤوس من الخمرفقال لها: «يجب أن أتحدث إليك .. لنصعد!» فقالت: «ألا نستطيع الكلام هنا!!» هز كتفيه ونظر من حوله، كان البار خالياً من الزبائن والنادل بعيداً عنهما مستغرقاً في تسوية حساباته. قالت نوشي بمرح: «بالمناسبة، لقد دعانا مفتي بك هذا المساء لحضور حفلة غنائية تحييها مغنية مرموقة في حديقة ما.» لم يعلّق وقال لها: «اسمعي يجب أن نتحدث بجدّية خاصة وأنه علينا أن نتخذ قراراً هاماً.. لقد سألتني عن مهنتي أليس كذلك؟» قالت له: «أعرف مهنتك!» سألها: «وماذا تعرفين!»أجابت: «أنت مترجم في السفارة.» قال: «كيف عرفت ذلك؟!» أجابت «من أصحابك الليلة الماضية.. وأعلم ايضاً أن اسمك الحقيقي هو دو جونساك وأنك فيكونت وأنك تملك قصراً ريفياً في منطقة

"الدوردون" في فرنسا.» قال بأسى: «إنه متهدم!». فأردفت: «أما المزرعة فلا.. وهي تعود عليك ببضعة آلاف فرنك فرنسي سنوياً!». استمتعت نوشي بارتباكه فقد كان سيخبرها بما قالته ولكن بطريقة أخرى فسألها: «وهل أخبرك أصحابي بذلك أيضاً؟» أجابته قائلة: «لقد قلت لك إنهم تافهون. تصوّر أن مفتي بك عرض حبه علي منذ ساعة فقط ولو لم أنفجر ضاحكة في وجهه لكان من الممكن أن يأخذني عنوةً بينما يقوم خادمه الألباني بالحراسة!!» ناداها قائلاً: «نوشي!» أجابته بحدّة «ماذا؟!»

نعم ماذا؟ ... ماذا يريد؟ ... ماذا يمكن أن يأمل... لم يكن المغامر الذي تخيلته.... كان نبيلاً فقط، لا يملك مالاً، يعيش على إجادته لغات عدة... عمل ملحقاً بلجنة تحقيقات في برلين ثم معاون مدير في مشروع آليات زراعية في بودابست انتهى بكارثة ... والآن هو مترجم في سفارة. أخذت تنظر اليه مبتسمة وقد أسندت رأسها بيديها، بدأ يفقد رباطة جأشه ولم يعد يعرف ما يريد قوله لها: شيء واحد يشغله وهو ألاّ يعود إلى وحدته. استطرد قائلاً «اسمعي ....» قاطعته بحدّة قائلة:

- لن تبدأ بتمثيل مشهد الغيرة من جديد! إني أحذرك فأنا أنوي الحفاظ على حرية تحركاتي كما أترك لك حريتك! تلك الفتاة التي كانت هنا من قليل ... لم تتوقف عن مراقبتك!

- لا يهمني ذلك!!

- هذا غير صحيح لأنك حاولت جاهداً ألاّ تبتسم لها وإن كان ذلك صحيحاً فهو منتهى الغباء منك فأنا متأكدة من أنها تنتمي إلى عائلة غنية.

ـ وبعد؟

ـ لا شيء .... ماذا تريدأن تقول لي؟

ـ لقد ذهبت إلى الشرطة...

فركت أنفها وقطبت حاجبيها وفكرت بالمشاكل التي كانت لها مع الشرطة ثم قالت:

ـ وماذا يريدون مني؟

ـ إن وجودك في تركيا مخالف للانظمة.

ـ أعرف ذلك وبعد؟

ـ هناك قرار بابعادك.....

وفجأة حُلّت عقدة لسانه وانطلق يقول جملاً لم يكن قد حضّرها ويتخذ قرارات لم يكن قد توقع اتخاذها قائلاً: «لا تجزعي ... لقد فهمت من مفوض الشرطة أنه لو تزوجت شخصاً له الحق في الإقامة في تركيا فإنك...»وتوقف فجأة لما رأى من تبدل في تعابير وجهها ولاحظ ولأول مرة أن لديها شعوراً حقيقياً. فقد أرخت يديها ووضعت إحداهما على الطاولة بينما امسكت بالاخرى يده قائلة بهدوء: «أصمت أرجوك!» اضطرب هو الآخر ولم يهتم للتبادل الذي كان ينظر إليهما فقال: «سأبدأ غداً بإعداد الاوراق المطلوبة، لا أعرف ماهي ولكني أظن أن ذلك سيكون سهلاً.» أطرقت نوشي برأسها شاخصة الى الطاولة أمامها حيث ارتسم عليها شكل كأس من الكريستال وأطبق الصمت على المكان. أبقى جونساك يد الفتاة في يده فسألته «لماذا تفعل ذلك؟» أجابها: «هكذا!» فقالت: «ماذا لو كنت لا أريد الزواج منك؟!» اختفى الانفعال من وجهها وبدا مشدوداً من التفكير فقال لها هامساً:

«أرجوك يا نوشي.» أجابته: «حسنا شريطة ألا يعلم أحد أني تزوجتك!» فأطرق قائلاً «لن أبوح بذلك.» فقالت: «وماذا لو......» فهم ما أرادت أن تقول وتساءل لماذا؟ .... لماذا ترفض أن تمنحه وهي المقيمة معه ما تتباهى باعطائه للآخرين؟ لماذا ..... ثم تابعت قائلة: «اني لا أريد أن أتزوج» فسأل: «أبداً!! » أجابته: «في الوقت الراهن لا أريد ذلك ... أما ما تطلبه الآن فمستحيل أن أقبل به.»

تركت نوشي البار متوجهة إلى الردهة حيث استقلت المصعد المتجه الى الاعلى فنهض جونساك حائراً متردداً وتبعها إلى الاعلى متوجساً من أن تغلق الباب عليه ولكنه فُتح حين دفعه ودخل. كانت مستلقية على سريرها شاخصة ببصرها نحو السقف. ناداها بصوت يدعو الى الشفقة فلم تتحرك فأخذ ينهب أرض الغرفة جيئة وذهاباً يقول كلاماً لم يكن يدري كنهه ....لم يستطع التعبير بكلام مفهوم عما يجيش في صدره. لقد قالت له إن اصحابه تافهون وبدأ يكتشف أن ذلك صحيح ... فتحت عينيه على أشياء كثيرة، على اكتشاف ذاته .... إنه مثلهم إنسان فاشل في العقد الرابع من عمره يعيش حياة بوهيمية كأي شاب أرعن ولكن ذلك لم يكن السبب الوحيد لاضطرابه فقد اكتشف في ذاته شيئاً أكثر تعقيداً: لقد عاش وحيداً وفجأة خلال ساعات قلائل اكتشف لذة الحياة المشتركة .... اكتشف اشياء اخرى ... أحاسيس، افكار اخرى... حقائق يجيش بها صدره تدور كلها حول محور واحد الآن: لا يريد أن يتخلى عن نوشي أو بالأحرى لا يريدها أن تتركه. استعطف وقدم الوعود: «ستفعلين كل مايروق لك، أقسم

أن أدعك حرّة» لم تحرك ساكناً وظلت تحملق في سقف الغرفة فاستطرد قائلاً: «كنتِ قد تكلمت عن وجود شقة قرب حدائق "تقسيم" سنأخذها وأتدبر أمري» فقالت: «وكيف ذلك؟» قال: «لا أدري ولكني قلت لك سأتدبر أمري.» أحسَّ بحاجته الماسّة لها وبأنه مستعد لفعل كل ما يمكن فعله للحفاظ على وجودها معه، التفتت إليه وقالت: «لماذا لا تتزوج الفتاة الثرية التي التقيتاها في الأسفل؟» ولمّا لم يجب وهز كتفيه تابعت جادة: «إنك تستطيع ذلك لو أردت، هذا ما يجب عليك فعله» قال بتوسل: «نوشي .... سنتزوج ولن يعلم مخلوق بذلك ... ثم ... ثم لا شيء سيتبدل ..» جلست على حافة السرير ودفعت بشعرها إلى الوراءوقالت: «ستكون تعيساً!» ضحكت منه إذ كان محتقن الوجه تبدلت معالم وجهه فاختفت عنه هيئة الرجل الحازم المتميز وغدا كطفل كبير على وشك البكاء. قالت: «حسناً، سنتزوج!» قالتها وكأنها تقول «سنذهب الى السينما هذا المساء.» فاقترب منها وحاول إمساك يدها قائلاً: «هل قلت ذلك حقاً؟» ابتعدت عنه متجهة الى غرفة الحمام وهي تقول: «يجب أن نستعد لهذه الليلة فإن مفتي بك ينتظرنا في الساعة السادسة في البار. أظن أنه يجب أن أكتب إلى فيينا للحصول على شهادة ميلادي؟!» استبدلت ملابسها أمامه وفكرها منشغل بما يترتب عليها من أعمال مزعجة لاستكمال معاملة الزواج ؛ كان عليها أن تنال موافقة والدتها، عليها إذن أن تكتب لها في بيروت حيث ترافق اختها ذات الاربع وعشرين ربيعاً. أخذت تتكلم وتتكلم ... لم تصمت إلا عندما وضعت أحمر الشفاه على شفتيها، كانت تقول: «في كونستانزا حيث

قـابلت صـديقك صـاحب المـصـرف ... مـا اسـمـه؟ .. نعم "أوسـون"... حـدث ذات مـسـاء أن كـان هناك رجـلان مـهـمـان، صناعـيـان ألمـانيان قَـدِمـا الـى كونسـتـانزا للعمل. لقد قـامـا بدعـوتي مـع شـقـيـقـتي إلى العشـاء ... كان ذلك على شـرفـة المطعم الواقع في الساحة الرئيسـيـة للمـدينة .... كانا يريدان اسـتـثـارة اعـجـابنا فطلبـا أغلى المـأكل والشـراب ... كافـيـار، شـمـبـانيـا، مـحـار ... لم يكونا يعـرفـان والدتي فقد كـانت تأكل الشطائر مثل كل مسـاء على الطاولـة المـجاورة فقال أحدهما مـشـيـراً إليـهـا: «هل يمكنكم القـول إن كـانت تلك الدمـيـمـة الشَمطاء جميلة في شبابها؟» لم نجسر على التعليق أختي وانا فكل مـا فـعلناه كـان أن التـقت نظـراتنا ...» سـألهـا جـونسـاك «ومـاذا حـدث بعـدئذ؟» أجـابت «لا شـيء .. لقـد دفـعـا لنا ثلاثة آلاف ...».

ـ ٤ ـ

انتاب جونساك ألم حادفي صدغيه وشعور بالدوران في عالم متفكك العناصر غير متوازن، فقد تنقّل كالمكوك عشرات المرات بين الشرفة على الشاطئ وشرفة الطابق الاول في منزل ستولبرغ مسترقاً النظر في كل مرّة الى الغرف التي يمر بها دون توقف وهاهو يتابع الصعود والهبوط. إنها حقاً ليلة من ليالي البوسفور برخاوتها، بعظمتها وبؤسها، بعبقها ورطوبتها، تضاهي بشاعريتها تلك التي يشعر بها المرء في ريف استنبول إضافة إلى أنه يبدو لا حول ولا قوة له فيها.

كانت عوامة السويدي المبنية من خشب مثلها مثل كل العوامات القديمة راسية على شاطئ البوسفور. وصل اليها المدعوون في زورق مجدافي ونزلوا في الردهة الرئيسية. كانت المياه العميقة صافية هادئة يرى المرء من خلالها صخور القاع حيث تتجول الاسماك بينها دون اكتراث. انبهرت

نوشي بذلك الجو الساحر وبالعوامة واسعةالارجاء. كان ستولبرغ ينتظرهما على الجسر الذي يصل العوامة بالماء مرتدياٍ سترة رمادية غير رسمية. بدا أكثر شقرة وغموضاً، نبيلاً مشرق الوجه بفعل انعكاسات شمس المغيب عليه.

كان من الصعب على جونساك استجماع ذكرياته فقد كان متعباً متوتراً، ثملاً بعض الشيء، ثمالة لم تكن لتمنعه من التفكير: ماذا جرى بعد ذلك؟ اجتمع المدعوون عند المغيب على شرفة مفروشة بالطنافس والارائك الملونة أرضاً مضفية جواً شرقياً عبقاً على المكان. كان سليم بك يقرأ الشعر و"اوسون" جالساً تحت قدمي نوشي، أما مفتي بك فكان قد أحضر ليليا معه وهناك ايضاً النحات واخوه ذو الوجه المغولي وتوفيق بك إضافة إلى شابين أو ثلاثة لم يكن جونساك يعرفهم. بدت القسطنطينية من بعيد مشرئبة بمآذنها وقبابها في السماء قرمزية اللون. بدأ العازفان اللذان أحضرهما جونساك العزف على قيثارتيهما الغريبتين لحناً حزيناً هادئاً تمازج مع النسمات الرقراقة. كانت المراكب تنزلق على مياه البوسفور بهدوء وأخرى راسية تتلون اقسامها النحاسية بلون المغيب القرمزي. أخذ ستولبرغ يقدم العرق ويُحتسى جرعة واحدة بين لقمتينٍ من المازة الحارّة الطعم. كل ذلك جعل نوشي تشعر أكثر من غيرها بأريحية الضيافة وسحر المكان وأهمية الداعي فاتخذت مكاناً إلى جانبه. توجه المدعوون بعد ذلك الى غرفة الطعام حيث كان العشاء على ضوء الشموع إذ كانت هناك المئات من الشموع التي تنيرالموائد والوجوه بنور خافت كسول. جلست نوشي إلى جانب ستولبرغ بعيدة عن

جونساك الذي كان جالساً بجوار ليليا. أخذ جونساك ينظر بين الحين والآخر إلى وجه الراقصة المليء بالحيوية ويقهقه ضاحكاً في حين كان سليم بك الجالس بجانبه يقرأ الشعر للآنسة ليليا ذات الثوب الأبيض التي كانت ترنو الى جونساك بحشرية مع رنّة كل ضحكة لنوشي. ماذا قيل لها عنهما؟ أعاشقان هما أم صديقان؟ أخذ سليم بك يدفع ليليا الى الشراب وكانت تقبل التحدي فانبرت قائلة لجونساك: «إن صديقتك جذّابة جداً فقد قمنا سوية بالامس بنزهة في المدينة ولم أتسلَّ هكذا من قبل!»

امرأتان فقط وسط هذا العدد الكبير من الرجال! امرأتان مختلفتان تمام الاختلاف. أما ليليا فهي ابنة وحيدة لتجار أثرياء ينتمون لسلالة تعود الى ثلاثة أجيال في بيرا ... تتمتع بحرّية واضحة أكثر من تلك التي تتمتع بها نوشي لكن نشأتها البرجوازية الموسرة طفت على أدق تفاصيل شخصيتها وبدت في كل حركة تقوم بها....

من قدّم الشراب لجونساك؟! عندما ترك المدعوون المائدة كان رأسه ثقيلاً. عاد العازفان الى البهو ليشاركا مغنّية تركية كبيرة في السن ذات صوت حاد أخذت تغني لساعة من الزمن اغنيات تركية قديمة وكان أحدهم قد أحضرها من مكان ما ... استمع اليها البعض والبعض الآخر كان يتهامس في الزوايا. لم تكن الموآمة منارة إلا بشمعدانات خافتة تنثر حولها بقعا من نور اختلط برقعات واسعة من الظلال يصعب على المرء أن يرى من خلالها بوضوح وجوه الاشخاص وأيديهم.

اختفت نوشي مع ستولبرغ خلال الوصلة الغنائية وعندما وجدها جونساك بعد مدة بادرته بالقول مشيرة إلى رفيقها: «لقد أخذني في جولة في العوامة، إنها رائعة وتحتوي على أشياء نفيسة ورائعة» ابتسم ستولبرغ وحاول جونساك الابتسام فأردفت قائلة: «هيا بنا ندّخن!» كان المدعوون يشربون ويدخنون متوزعين في حلقات صغيرة، بعضهم كان في الردهة حيث جلس سليم بك غارقاً في مقعده يقصّ للعازفين قصصاً تركية قديمة. أما جونساك فقد بقي وحده زمنا قبل أن ينضم إلى ليليا في صالون صغير مفروش بأقمشة قاتمة اللون حيث استلقت على أريكة تدخن غليون الحشيش الذي أعدّه لها أوسون. أراد جونساك في تلك اللحظة أن يوقف كل شيء. شعر بشيء ما يقلق راحته، شعر بعدم وجوده، بانفراده عن الحلقات الساهرة. بدأ من جديد بحركته المكوكية صعوداً وهبوطاً في العوامة فالبعض كان في الشرفة العلوية والبعض الآخر في الطابق السفلي، لم يشعر بالانتماء وأحس بالفراغ، نظر حوله وقال لنفسه: هذا الحفل وأولئك الناس متحلقون حول سيدتين ... سيدتين وعدد كبير من زجاجات الوسكي! ... فهذا الرجل ذو الوجه المغولي يفتح زجاجة ويسكي ويتقاسمها مع أخيه ... إنهما ثملان لا يعرفان ماهما فاعلان... أخذا بالتجول في العوامة ... من الظل إلى النور الخافت للشموع ... من زرقة الليل على الشرفة إلى سواد غامض داخل العوامة ... أما نوشي فقد رآها وستولبرغ مستلقيين على أريكة واحدة في غرفة خافتة النور ... الكل رآهما! ماذا يظنونهما؟! أدار الحاكي في الطابق الاول وصعد الى الأعلى .... رأى شبحي

شخصين في ليل الشرفة ... فستان أبيض وشبح أوسون النحيل ... اغتاظ وقال لنفسه: لسنا هنا إلا للتغطية على أفعالهم ... للتستر على ما يفعلون ... لتمثيل دور الجماعة حولهم وهم يمارسون الحب!. انتبه فجأة إذ أن تصرفاته ولون وجهه يفضحان الغيرة التي تنهش قلبه فتظاهر بعدم الاكتراث رغم أنه كان قد عبر شرفة الطابق العلوي للمرة الخامسة أو السادسة حيث بدأ الغناء من جديد فنادته ليليا قائلة: «جونساك، أتريد أن ترقص معي؟» ورقصا معاً ممسكاً بخصرها النحيل وشعر وكأن ملابسها خفيفة تحت فستانها وتحسَّس جسداً طويلاً مكتنزاً مختلفاً تماماً عن جسد نوشي فسألته: «هل تمضي وقتاً جميلاً؟» أجابها: «ولماذا تسألين هذا السؤال؟» فقالت: «هل أنت غيور؟؟» أجابهاباقتضاب: «كلا!» فقالت: حقاً! ألن يهمك البتّة أن تُغازَل فتاتك التي تحب؟!» لم يجب فتابعت: «إنها ليلة غريبة أليس كذلك! فهي المرة الاولى التي أدخن فيها الحشيش ويبدو أن ذلك لم يؤثر علي ابداً.» خذلها صوتها فظهر الاضطراب فيه ولكنها أكملت: «إن أصحابك رائعون فأوسون يغازل بوقار ممتع. تعال واشرب شيئاً.» سحبته الى حيث وُضعت زجاجات الكحول، أخذت إحداها وملأت قدحين قائلة: «حاول أن تمرح كالآخرين ... بصحتك!»

عاد أوسون يحوم حولهما وكذلك فعل مفتي بك الذي طلب اليها الرقصة التالية، أما جونساك الذي كان قد عبّ الكأس الاولى جرعة واحدة فقد ملأها من جديد. لم يعد يرَ في وقت متأخر من السهرة سوى خيالات تهرب أمامه... رأى نوشي في

مكتب ستولبرغ تقلب صفحات ألبوم للوشم وحيّته عند مروره تحية وديّة. استاء جونساك فقبع في زاوية ولكن سليم بك تعلق به وطفق يروي له قصة سلطان كانت له لحية مجدّلة باللؤلؤ. كان العازفان قد شربا حتى الثمالة فأطلقا لأصابعهما العنان في مداعبة أوتار آلاتهما الموسيقية.

بدا البوسفور أخاذاً للناظر من كل أركان العوامة تتغلغل مياهه الرقراقة في الخلجان الواسعة وتخرخر مياهه المزبدة ترسم خيطاً رقيقاً أبيض حول جسر العوامة العائم. كانت أصوات المجاديف تُسمع مع اقتراب المراكب بفضول نحو الضوء والموسيقى. هتفت نوشي لجونساك إلى مكتب كانت فيه مع ستولبرغ وقالت له: «برنار، انظر ماذا أعطاني ستولبرغ!» أزعجه جمود ستولبرغ في مكانه هادئاً غير مكترث لغيرة جونساك أما نوشي فمدت إليه تمثالاً صغيراً منحوتاً في قطعة واحدة من العنبر الثمين قائلة: «أليس جميلاً؟» أجابها ببرود: «نعم، إنه جميل.»فضل الابتعاد فالتمثال قطعة فنية نادرة تبلغ قيمتها آلاف الفرنكات. تركهما وعاود حركته المكوكية في العوامة ثم رأى ليليا تراقص أوسون ومن ثم مفتي بك.. أما النحات فكان مستنداً إلى درابزين الشرفة يتقيأ عشاءه.

لم يكن أحد يفكر بالوقت. كانت أنوار استنبول تتراقص في الجهة الأخرى للبوسفور لا يعكر صفو الهدوء سوى تلاطم الامواج والموسيقى المنبعثة من العوامة: موسيقى الحاكي والنغمات الحالمة للآلات الموسيقية الشعبية. مرّت نصف ساعة تقريباً وجونساك وحيد يتضجر في ركن من الشرفة.

اقترب منه ذو الوجه المغولي وناوله كأساً أفرغها في جوفه جرعةً واحدة. أضحت الخيالات اكثر غموضاً وانطفأت الشموع. مرّ جونساك أمام صالون صغير وأحس بوجود إنسانين متلاصقين وقوفاً في الظل، ومبسمين ملتصقين أحدهما بالآخر. هل هذه نوشي أم ليليا؟ لم يكن ذلك مهماً بالنسبة له فهذه الشهوات والللذات المسروقة من حوله تدمي قلبه. عاد من حيث أتى لأن سليم بك كان ينظر اليه .. تعثر بالألباني الذي كان مازال يهيء الغلايين وسمع في تلك اللحظة ضحكة عصبية من على الشرفة بجانب الماء وكانت ليليا تصرخ: «لا تنظروا إذن ... إذا أقسمتم بالا تنظروا ...» همهم الرجال بأصوات خافتة. أين نوشي؟ إنها حتماً في مكان ما مع ستولبرغ... اتجهت الظلال، ظلال الرجال، نحو الشرفة وسُمع صوت ليليا الحاد يقول: «لست وحدي التي ...» كانت سكرى ثم انطلق صوت ارتطام جسم في الماء... ضحكات وصراخ وفرح وجنون. اقترب جونساك ورأى ذا الوجه المغولي في مياه البوسفور يسبح ويطلق الماء من فمه كدلفين نافورة في بركة ماء. أخذت أشباح الرجال تقترب أكثر فأكثر حول ثوب ليليا الابيض واياد كثيرة تتشبث بقماش ذلك الثوب. احتجت ليليا قائلة: «دعوني أقم بذلك وحدي وأقسموا ألا تنظروا ..» كان جونساك أبعدهم عنها ولكنه رآها تقوم بنزع ثيابها عن جسدها بحركات سريعة وللحظة، رأى صفاء جسدها العاري البضّ، فقد قفزت في الماء واخذت تسبح باستقامة. لم يكن الليل حالكاً بشكل يخفي فيه الجسد الابيض المتكسر مع تكسّر الأمواج. صرخ صوت ما «عودي!». أما الفتاة فكانت تسبح نحو

العمق يتبعها الدلفين الضاحك. لم يكن عارياً هو الآخر فقد قفز بثيابه في اليم غير عابئ بالماء البارد، يضحك ضحكة تخاله فيها ضبعاً بربرياً جباراً. «عودي» قيل لها ثانية ولكنها كانت قد غابت في خضم واسع من الظلام فخيّم الصمت.

«ماذا يحدث؟» قالت نوشي التي جاءت إلى الشرفة مع ستولبرغ فرماها جونساك بنظرة بغيضة. أعادوا النداء للفتاة بالعودة ولكن ذا الوجه المغولي ظهر وحده وأخذ يسبح نحو الشاطئ متثاقلاً يتنفس بصعوبة، فنظر الرجال إلى بعضهم البعض مضطربين قلقين. اندفع جونساك بينهم وقفز إلى المركب المجدافي الراسي بجانب الشرفة ثم أخذ يجدف في عرض البحر منادياً باسم الفتاة مقدّراً خوفها وجزعها. تابع الهتاف بصوت أجش وغريب وهو يقول: «لا تخافي ... هذا أنا... أعدك ألاّ أنظر .. ليليا أين انتِ؟»

جدّف بكل ما أوتي من قوة وسرعة باتجاه الجلبة التي كان يسمعها في مكان غير مميز من البوسفور، كان غارقاً في عرقه رغم برودة السماء الشاحبة. هتف مجدداً: «ليليا... أنا جونساك ... سأعطيك سترتي..» اعتقد أنه يراها شاردة وسط الماء، شاخصة بهلع صوب أشباح الرجال المتجمعين على شرفة العوامة منتظرين رؤيتها عارية.

ارادت أن تتحداهم وتثبت لهم جرأتها وحريتها. قبلت التحدي بتحدٍ آخر إذ أعادتها المياه الباردة إلى واقعها. صرخ من جديد: «ليليا! أين أنت؟» ثم رآها فجأة أقرب إليه مما كان متوقعاً. لم تعد تقوى على السباحة والمياه رقراقة بشكل بدت فيه ليليا كما خلقها ربها، شاحبة في الخضم الحريري لمياه

البوسفور التي جعلت من جسدها صفحة بيضاء تكسرت مع تموجات الماء في اليم وذلك ما جعل جونساك حانقاً وحانياً. ولئن لم يستطع إنقاذ نوشي فقد أنقذ ليليا ولكن اندفاعه لإنقاذها لم يكن من أجلها فقط بل تعبيراً عن غيظه من الرجال الآخرين.

قال لها: «تعلّقي بالمركب وسأعطيك سترتي.» خلعها ثم استدار، حينئذ سمع ارتطام جسدها بحافة المركب وهي تصعد اليه، وزفرات لاهثة من التعب والجهد. عاد جونساك الى مكانه بجانب المجداف وأصبحت ليليا في مقدمة المركب منطوية على نفسها تكاد سترته القاتمة تغطي أجزاء من جسدها، رأسها بين يديها تبكي بصمت. «ليس هناك ... من هناك» قالت ذلك مرتجفة وسمع ايضاً صوتاً عن الشاطئ يقول: «هل وجدتها؟» كان ذلك صوت أوسون ولكن جونساك لم يجب ولم يكن يدري ما يجب أن يفعله فقد كان مرتبكاً. قالت له ليليا:

- لا أريد العودة إليهم. كان يجب ان تتركني أموت.
- لا تتكلمي وهدئي من روعك.
- إن أنت أعدتني الى أولئك الاوغاد سأقتل نفسي.
- ولكنك لا تستطيعين العودة الى أهلك دون ملابسك!
- لا يهمني الأمر.

كان جسدها يرتعش وأخذت تبكي بعصبية وتعض ذراعها حتى الادماء وقالت: «لا أريدك ن تذهب إلى هناك!». كانا على بعد عشرة امتار من العوامة المضاءة وبدت على الخليج أخيلة الرجال متقطعة كخيالات رسوم صينية فقال جونساك بصوت

مرتفع «أعطوني ثيابها!» أطبق الصمت والتردد عليهم ثم أمرت
- نوشي بهدوء: «إفعلوا ما طلب منكم!». انطوت ليليا على نفسها
أكثر فأكثر في المركب كي لا يلحظها أحد من الشرفة. انحنى
ستولبرغ وناوله الثياب الحريرية الناعمة فأضافت نوشي:
«وحذاءها ايضاً!» لم تكن هناك موسيقى أو حتى همسات، كان
هناك صمت مرتبك خجول. شعر جونساك أنه ينتقم من نوشي
فسار بالمركب في عرض البحر جالساً بجانب المجداف ثم
قال لها: «تستطيعين ارتداء ملابسك إني لن انظر اليكِ.»فقالت
له بصوت مرتجف: «انك مختلف عن الآخرين!!»

لم تؤثر فيه هذه الكلمات ولم يفكر بها إلا بعد حين، فقد
أحس أن ليليا أخذت بارتداء ثيابها وانها ترتعش و أنها تشد
على ثوبها وجواربها من اهتزازات المركب المستمرة. قالت
بلهجة فتاة صغيرة تعيسة: «بقيت حقيبة يدي هناك» أجابها
«سأحضرها لك غداً». كان ذهنها يقفز من فكرة إلى أخرى
عندما سألته: «لماذا فعلتَ ذلك؟» أجابها: «ماذا فعلت»
فقالت: «عكس الآخرين. لقد أتيت لإنقاذي.» استدار نحوها
ورآها تسرح شعرها المبلل بأصابعها فقالت له: «ماهي
فكرتك عني؟» أجابها: «عنكِ .. لا شيء، اما عنهم فأشياء
قبيحة.» أحس بالغم فهو لم يكن أبداً قد عبر البوسفور وحده
بين لجّة التيارات هذه التي تتقاذف المركب كما لو أنها
تجرفه نحو البحر الأسود. كان يجدف بوحشية دون تفكير
والطنين يملأ أذنيه. سألها بخوف: «هل يتقدم المركب؟»
قالت: «انتظر ... يبدو كذلك! ... كلا ... نعم ... نعم لقد
بدأنا نتقدم.»

مازال يرى من بعيد أنوار عوامة ستولبرغ فقال لنفسه أظن أن السويدي سيأخذ نوشي معه في سيارته.. ثم بدأ يتخيلهما في ظلام السيارة وشفاههما متلاقية. هل خطرت هذه الافكار في رأس ليليا وتساءلت عن السبب الذي دعاه الى انقاذها بدلاً من أن يهتم بعشيقته؟ أفاق من شروده على صوتها يقول له: «إنك رجل مضحك. هل ستعود صديقتك وحدها؟ » لم يجبها إذ أن قلبه كان يطفح بالحقد فسألها بدوره: «أين ستذهبين؟» اجابت : «لا أدري.» لم يستطع جونساك التعرف الى النقاط المختلفة للشاطئ بسبب الظلام فأمضيا نصف ساعة يسبران غور الظلام بنظريهما علّهما يجدان مرسى للمركب. لم يكن تجديف جونساك منتظماً إذ أن اوداجه كانت تخفق باستمرار وألم نتيجة بقية ثمالة من إفراطه في الشراب.

فتّش الاثنان طويلاً في الطرقات القليلة الاضاءة عن سيارة أجرة تقلّهما الى المدينة. أخذت السماء تتلوّن باللون الرمادي الفاتح وبدأت الوجوه تظهر واضحة بعد ذلك الظلام الدامس الذي مرّا به. التصق ثوب ليليا المبلل على جسدها وبدا شعرها كتلة مشعّثة غير منتظمة فوق جبينها: إنها أقل جمالاً ولكن أكثر جدية واثارة. اكتشف جونساك فقدانه للمونوكل من نظرة رفيقته الثابتة والفضولية التي كانت ترمقه بها. وكان أيضاً قد تغيّر شكله بدونه. كان التعب بادياً على محياه وقسمات وجهه وأهدابه ترتجف من قصر النظر الذي يعاني منه. قطعت ليليا الصمت قائلة: «سأسبب لك حتماً مشكلة.» سألها: «لماذا؟» فقالت: «لن تكون نوشي مسرورة!»

أشاح بوجهه. كانا في سيارة أجرة قديمة وحسبهما السائق عاشقين فأخذ يقود بتؤدة. شعر جونساك من كلام رفيقته بشيء من الاثارة. أتعتقده عاشقاً؟ هل اعتقدت انه تصرف بدافع الغيرة؟ نعم .. تصرف عن غيرة ولكنها غيرة من الرجال أجمعين .. غيرة .. ثورة ... قرف!!! كانت قريبة جداً منه، شعر بكتفها يلتصق بكتفه التصاقاً يوحي بالرضا. قالت له: «إنك تحكم عليَّ بقسوة، أليس كذلك؟» أجابها بالنفي دون قناعة بذلك، لم يكن ابداً يفكر بمحاكمتها! تابعت بقولها: « عدني أن تنسى ماحدث هذه الليلة.» قالت ذلك وهي تشد على ذراعه. خالها تنتظر أن يضمها فلم يفعل وأجابها: «أعدك بذلك.» أنزلت ليليا الزجاج الفاصل بينهما وبين السائق وأعطته العنوان وافترقا أمام بناء حديث في بيرا فسألته: «هل ستأتي بحقيبة يدي؟» أجابها: «غداً!» ابتسمت وأشارت الى السماء الصافية اللون فوق الاسطحة قائلة: «تعني هذا الصباح!».

استغرب البواب وصول جونساك وحده فسأله عن السيدة التي لم تعد بعد. كان يستعد للنوم عندما سمع ضجة المصعد تتوقف ثم وقع خطوات واضحة وارتطام بالباب. إنها نوشي تحمل تمثالها عنبري اللون ضمن ورقة من صحيفة. سألته وهي تلقي بقبعتها على السرير: «إذن؟!» قال: «ماذا؟» قالت: «الفتاة!» لم يرد وتابع تنظيف أسنانه فتابعت: «إن لم تكن قد أُغرمت بك بعد كل ماقلته لها ....؟؟!» أجابها بنزق: «اخرسي!» فقالت: «سنتحدث بذلك غداً.»

وللمرة الاولى خلعت ثيابها كاملة أمامه دون غنج أو حياء

ثم قالت: «إن ستولبرغ مجنون... مجنون بحبي ... بكم تقدر ثمن هذا التمثال؟» استدار نحو الحائط كي لا يراها ورفع الغطاء الى أذنيه حتى لا يسمعها وقاوم جاهداً كي لا يقوم اليها ويندس في فراشها. لم ينم جيداً فقد كان يفكر تفكيراً مشوشاً بما حدث معه هذه الليلة. لم يكن قد انتبه الى أن نوشي قد أحضرت معها حقيبة يد ليليا ووضعتها على المنضدة الى جانب حقيبتها.

ـ ٥ ـ

سأل جونساك عن الساعة وكأنه مازال فاقد الوعي. استرجع وعيه فجأة وتعجب من وضعه. فرك حاجبيه فرأى نفسه في فراشه في الفندق، كان النهار قد بدأ منذ زمن وضوضاء المدينة قد بلغت أوجها. جلست نوشي على طرف سريره مبتسمة ووجهها قريب جداً من وجهه. لم يستغرب وجودها بجانبه بقدر ما استغرب عفوية ضحكتها، حانية عليه كحنان الأم وتلك الثقة التي أبدتها بجلوسها هكذا نصف عارية بجانبه. كان نهداها مكشوفين تماماً من خلال فتحة بُرنُسها كما كشف في الاسفل عن ركبتها الصغيرة المصقولة. مد يده بحركة آلية نحو الطاولة ليأخذ المونوكل ولكن نوشي أوقفت حركته قائلة: «ستلبس كرامتك فيما بعد» ثم انفرجت اساريرها.

بدا عليها ذلك المرح والخفة اللذان يعتريان المرء في يوم

عيد، ذلك ما حدا بجونساك الى العودة بذاكرته الى الماضي الذي لم يجد فيه سوى الذكريات السيئة فازداد تبرّمه خاصة وأن نوشي منعته من القيام من سريره وغسل وجهه، فقالت له وهي تتفحصه بنظراتها «إنك تبدو مثل صبي كبير مستاء!» كانت تتسلى كما يتسلى المرء مع حيوان يحبه وانحنت فجأة لتعضه في وجنته وتقول: «هل انت غاضب؟» .. نعم.. كان غاضباً متحيراً في كيفية عتابها. لاحظ وجود التمثال على الطاولة فتمنى لو يرميه من النافذة؛ أما نوشي التي كانت تتبعه بنظرها فقد اعتراها شعور وقح بالانتصار وقالت له دون حرج: «ذلك هو اول مكسب لي!» أشاح بوجهه فغدت أكثر نعومة وقالت: «إنك غبي كبيرا انظر الى نفسك... كم تتخيّل من الاشياء..»تظاهر بعدم سماعها وبلغ استغرابه الذروة عندما انسلت نوشي بحركة ناعمة داخل فراشه وألصقت جسدها بجسده وقالت: «أراهن أنك تعتقد بأنني قد مارست الحب الليلة الماضية مع حبة اللفت الكبيرة تلك... !!ألم تكن طبيعية في تصرفاتها فهناك شيء يثيرها، لم يستطع الانسجام معها فشعر بأنه تافه مثير للسخرية. أما هي فأضافت: «إنك لا تختلف ابداً عن الرجال عامة! جميعهم يتصوروون أننا معشر النساء لا نفكر إلا بالجنس... انظر إلي .. اعترف بأنك كنت ستتشاجر معي عند استيقاظك.»

مازال التمثال على المنضدة يذكره بتفاصيل الليلة الماضية المؤلمة انما كان جسد نوشي الساخن بجانبه وشعر لديها بنوع جديد من حنان وباسترسال صادق. قد لا يكون تصرفها تصرف إنسان عاشق ومع ذلك فهو تصرف مهم ونادر

بالنسبة إليه. استيقظت مرحة فتمطت وتدحرجت على سرير جونساك تدحرج طفلة على سرير شقيقتها ثم قالت له: «أنت حزين أليس كذلك؟ تظنني سيئة واعمل ذلك عمداً كي أعذبك!! أتريد أن أأتمنك على سر كبير؟» وفي الحال تغيرت تعابير وجهها واعتراه تعبير لم يره عليه قط. اقتربت بوجهها من وجهه وألصقت فمها على أذنه وتمتمت بعبارات انفجرت على أثرها بضحك عارم. أما هو فتنظر اليها بذهول فاتحاً شدقيه قائلاً: «كلا!!» قالت: «نعم.. هكذا كان وهكذا سيبقى دوماً.» فقال: «ولكنك قلتِ لي أنت بنفسك!!» قالت: «ماذا قلت لك؟» قال: «الغازي.. في أنقرة» أجابت غير مبالية: «لقد غازلني وهذا كل ما حصل.»

تابعت الضحك بمرح طفولي ثم أردفت: «ها أنت مضطرب! فالرجال يضطربون دائماً عندما يُقال لهم ذلك» وبصوت مفعم بالأسى تابعت قائلة: « لكنك لن تفهم؛ فهناك مشاعر لن يستطيع الرجال فهمها مطلقاً.» اختفى شعور جونساك بالغم ولم يعد يفكر بالرجوع الى المونوكل لنجدته: لقد فقد احساسه بالزمن. كانت الشمس قد اخترقت غرفته واخذت تتلألأ على غطاء السرير الاصفر الحريري. قفزت نوشي من السرير تجر أذيال برنسها الازرق الواسع وفتشت في حقيبة ثم عادت ومعها صورة رمادية اللون ظهرها أصفر واطرافها متكسِّرة وقالت بما يشبه التحدي: «انظر!» كانت الصورة تُظهر واجهة بناء طابقي في إحدى ضواحي فيينا، اصطف في الطابق السفلي منه مخازن عديدة أحدها لحذّاء وقفت امام عتبته عائلة في ثياب يوم الاحد: الأب ذو شاربين

كشاربي بسمارك والأم بصدّارة من قماش مربع وفتاتان صغيرتان، الاولى في ربيعها الرابع عشر والثانية في السابعة. قالت نوشي: «هذه الصغيرة هي أنا » ثم تحول مرحها إلى أسى تبعه إحساس بالغضب الشديد وقالت: «هل فهمت الآن أننا نمقت الفقر؟ إنه أقذر وأقبح شيء في الوجود! عندما ترى هذه الصورة التي التُقطت لنا صبيحةِ يوم أحد لا تشك بشيء وأما أنا فأتذكر الأحداث تماماً.... أُخذت هذه الصورة في أبشع الاوقات التي تلت الحرب... كنا نمضي الايام والايام لا نأكل سوى الشوندر وعَمَلُ أبي ينحصر في وضع نِعال من خشب لأحذية الاغنياء...»

استرجعت بحيوية الصورة من يد جونساك ورمتها على الطاولة بالقرب من التمثال، وبنفس الحماس ضمت طرفي برنسها وغطت صدرها ثم جلست على حافة السرير وجفونها مليئة بالدموع وقالت: «لقد حدثتك عن أختي التي تراها في الصورة، إنها الآن في سوريا... والدتي ترافقها وتخدم الراقصات... أما أبي فقد مات. قضى نحبه متجمداً في طريق قذر من ذوبان الصقيع واتى به الناس إلينا ملطخاً بالوحل. نظرت في عيني جونساك وسألته: « ألم تكن فقيراً يوماً؟» لم تكن تريده فقيراً مثلها فلم يجرؤ على البوح بفقره. تابعت قائلة: «الآن ساقص عليك قصة.»

كان الجوع ينهشنا .... وكانت أختي في الرابعة عشرة من عمرها. كان الوقت شتاء. ففي يوم غير مشمس في الساعة الثالثة من بعد الظهر كنا، أختي وانا، عائدتين من المدرسة وككل يوم حاول بعض المارة الرجال الاحتكاك بأختي... إني

أرى الآن تلك التخشيبة ذات الاعلانات الملونة وخلفها حقل ضبابي ... أما أنا فكنت أنتظر، أسترق النظر من خلال أخشاب جدرانها. وكانت عندما تعود أختي تعطيني قطعة من الشوكولاتة أو قطعة من الخبز .. نظرت الى الصورة من بعيد ثم تابعت: «لقد رأيت رأس أبي ....اتضح لي الآن أنه كان يعرف الحقيقة ولم يكن ليستطيع فعل شيء حيالها، لقد مات ملطخاً بالوحل! كان الاطفال يموتون جوعاً في البيوت المجاورة وفي الحيّ ... وكنا نستطيع العيش ببضع قوالب من الشوكولاتة!!. انتهى كل شيء!.

هزت نوشي رأسها كمن يريد التخلص من ذكريات مؤلمة ثم قالت لجونساك:

- ماذا قالت لك ليليا تلك الليلة؟

- لقد جعلتها مياه البحر الباردة تتخلص من السكر بسرعة.

- هكذا اذن! ويكت ... وقالت إنها تكره اولئك الرجال الذين....

- لقد تصرفوا بدناءة حيالها!

- هل أحببتها؟

- كلا!

- ولكنها ستمنحك كل شيء... كل ماتريد ... أتفهم الفرق؟... إنها غنية ... لم تشعر ابداً بالجوع .. الحب بالنسبة لها شيء مهم فهي تفكر به وتحلم به ... إنها تتصيد عاشقاً ولكنهاجبانةتتراجع في اللحظة الاخيرة ... ليليا لا تعلم أن الحب سلعة تمنح مقابل شوكولاتة أو ...

كان في صوتها مزيج من الحنان والكراهية، وقع نظرها على التمثال ولكنها التفتت وتنهدت قائلة: «ماذا إذن يا برنار؟ ما رأيك بكل ذلك؟ ماذا ستفعل... هل مازلت تريد الزواج بي والعيش معي كما يعيش أخ مع أخته؟» لم يكن هناك شيء يقوله.. كان مضطرباً تمنّى لو يضم نوشي الى صدره ولكنه تأخر إذ أن وجه نوشي استعاد تعبيره الصارم الذي يدل على انها تريد الاهتمام بأشياء أخرى أكثر جدية. نهضت وأزاحت حقيبة ليليا قائلة له : «بعد قليل ستأخذها بلطف وسوف تُغرم بك...!» فقال معترضاً: «لا ! لن آخذها»فقالت: «ستأخذ لها الحقيبة، وستُغرم بك لأن ليس لديها شيء آخر تفعله. إنها غنيـــة جـداً ولن تندم على شيء.» ناداها بصـــوت ناعم ولكنهاقالت له: «نوشي ليست هنا لتربطك ... هذا الصباح، قبل ان تستيقظ، فتشت في خزانتك. كنت أشك بامكانياتك المالية؛ منذ رأيتك للمرة الأولى في أنقرة كنت أنيقاً جداً ونظيفاً، ثيابك جيدة الكي ولكن ذلك المظهر لم يخدعني ابداً. لقد عرفت أنك لا تملك إلا بزة واحدة وثلاثة قمصان وحذاءين احدهما بال يجب أن تتخلص منه ... (كانت تتلذذ باحراجه) ... كن حراً في تصرفك معي ... لم أصدقك ابداً عندما أردت إيهامي بأنك مغامر .....

أخذت ترتب الغرفة وتلملم الثياب المتناثرة من ليلة الأمس وهي تتكلم فقالت: «إن كنت تريدفستتمكن من الزواج بليليا .... حياتها مملّة فأهلها مسنّون وليس لهم أصدقاء والدليل على ذلك أنها قبلت دعوة ستولبرغ بفرح.» فقال بجزم: « لا تتكلمي عن ذلك ابداً بعد اليوم!» ولكنها تابعت: «كما تريد ولكني أؤكد

لك أنك على خطأ. فأنا لن أتضايق إن أنت اصبحت عشيقها أو حتى تزوجتها .. ذلك عندي سيأن.»

نهض جونساك من سريره وارتدى مئزره فوق ثياب نومه؛ مئزر حريري قديم كثيابه. أما نوشي فكان مازال لديها كلام تقوله لذلك كانت تراقب جونساك متحيّنة الفرصة المناسبة وحانت فرصتها فقالت: «تتذكر الدور التي أريتك اياها بالقرب من حديقة«تقسيم»؟ شعر بأنه أصبح لعبة في مناورة محبوكة الاطراف، في ملهاة معدَّة خصيصاً للايقاع به ... طرد هذا الشعور من رأسه وقال: «تكلمي!» قالت: «عليَّ أن أزور شقة فيها بعد الظهر.»فرك جونساك حاجبيه واتخذ من جديد هيئة الرجل ذي السحنة المميَّزة المتعالية وكان المونوكل يلمع على حدقته اليسرى. ضحكت من هيئته وقالت: «اسمع ... لا تتصرف هكذا وإلا فلن أقول لك شيئاً! .. حسناً! .. شغل هذه الشقة ملحق للسفارة السويدية مدة عام ثم دُعي الى بلاده على عجل حيث كانت ابنته في حالة صحية خطيرة ولن يعود قبل أشهر أو قد لا يعود ابداً لأنه هو الآخر مصاب بمرض السل. إن ستولبرغ يعرفه معرفة وثيقة وسيحدثه عنا ويعرض عليه أن نحرس له الشقة مدة غيابه.» انفجرت ضاحكة لمنظره وقالت له: «انظر الى نفسك في المرآة! يخالك المرء مازلت غيوراً!!» اقتربت منه بحنان وهمست له: «ألم تفهم حتى الان؟ تذكر جيداً حكاية أختي وما قلته لك: لن أكون ابداً لرجل ما ... لأي رجل حتى انت.» ثم قبلته على ثغره وخديه متابعة: «دعني اتدبر أمر الشقة وانشغل أنت بأمر ليليا التي تنتظر حتماً زيارتك وحقيبة يدها... قد تكون هذه الزيارة نافعة.. أما أصحابك فلم يروقوا

لي منذ اليـوم الأول وحـسنتـهـم الوحـيـدة انهم أوصلونا إلى ستولبرغ .. الذي يدين لنا بشقة.. والذي سيعرّفنا إلى أشخاص أكثر نفعاً.» قاطعها جونساك قائلاً بتلهف: «ماذا حدث في تلك الليلة بعد مغادرتي ؟» أجابته بعدم اكتراث: « لا شيء لقد كانوا مـجـانين. غضب ذو الوجه المغولي دون سبب بعد أن ازدرد بجرعة واحدة زجاجة من "الكوانترو" ليدفأ وانبرى يريد تحطيم ما يقع تحت يديه وانتهت الحفلة بسرعة. لا تنقل لهم رأيي بالحفلة فليس هناك داعٍ للخصام معهم حول هذا الأمر.

كان جونساك قد بدأ حلاقة ذقنه حين رن جرس الهاتف. فرفعت نوشي السماعة وقالت وهي تمدها له: «إنه لك!» سمع صوتاً لم يكن قد سمعه من قبل، صوتاً مضطرباً، مهموماً ومتهدجاً يقول له: «أنت السيد دو جونساك؟ هنا السيد باستور....» لم يوح له هذا الاسم بشيء فقال: «نعم! وبعد!» أتاه الصوت من الطرف الآخر يقول: «السيد باستور والد ليليا.. هل تستطيع المجيء فوراً إلينا؟ .. لا .. لا استطيع قول أي شيء على الهاتف .. (أخذت نوشي السماعة الثانية) ... اؤكد لك أنه أمر ملحّ.. اسمع .. لقد حاولت ليليا الانتحار بالسم ... وقد تركت لك رسالة..» وعده جونساك بالذهاب وأعادالسماعة إلى مكانها فرأى نوشي بالقرب منه مبتسمة ثم قالت له بلهجة انتصار: «ماذا قلت لك؟» قال: «إني لا أفهم!» أضافت: « إنها تحبك وبما أنها خجلت مما جرى ليلة البارحة فإنها تريد أن تعيد اعتبارها.»

ارتدى جونساك ملابسه دون أن يتفوّه بكلمة واحدة وكانت نوشي تلبس هي الاخرى. قالت له وهو على وشك المغادرة:

«ألن تقبّلني؟!» أخذها فجأة بين ذراعيه وضمها اليه بقوة والدموع في عينيه هل كان ذلك بسبب نوشي أو بسبب ليليا!!
قالت له وهو متّجه نحو الباب: «إن لم تجدني عند عودتك فسأكون منشغلة بزيارة الشقة..»

كان الجو حاراً في الطّرقات وانبعثت من المنازل روائح حلوة وحارة، رائحة توابل الشرق... عبق تركيا المميز. توقف المصعد بجونساك في الطابق الثالث من أحد أجمل أبنية بيرا ففُتح الباب قبل أن يقرعه. أشارت له خادمة ترتدي قبعة مطبخ ومريولا أبيض فتبعها؛عيناها حمراوان وفي يدها منديل مستعمل. كانت الشقة واسعة، مضاءة وفسيحة بشكل يثير الاعجاب فقد اعتراه شعور بالراحة والبذخ والنظافة في هذا المكان. كانت هناك عدة غرف تفتح على ممر واسع بابواب زجاجية واستطاع من احدى هذه الغرف سماع همهمة أصوات.
قالت الخادمة: «انتظر من فضلك.»

وجد نفسه في غرفة استقبال تطل من شرفتها الواسعة على منظر فسيح مترامي الاطراف "لرأس الذهب" وفي ركن من أركانها كان هناك بيانو غالي الثمن. تناهى الى سمعه بكاء خافت وراء أحد الابواب. دُقّ جرس الباب من جديد فرأى ممرضة تدخل بسرعة. وأخيراً رأى رجلين متوجهين نحو الباب. كان الأول فارع القامة ممسكاً قبعته بيده، عرفه جونساك في الحال فهو الطبيب الفرنسي الوحيد في القسطنطينية، الذي ما إن شاهد جونساك حتى توجه نحوه وحيّاه وقد علت وجهه نظرة استغراب لوجوده هنا. أما الآخر فكان في ثيابه المنزلية، رجل قصير القامة ذو شعر رمادي ولحية صغيرة. ودّع هذا الطبيب

وعاد أدراجه الى حيث يقف جونساك مبتدراً إياه بلهفة: «السيد دو جونساك ! إنني والد ليليا... كنت على علم أن ليليا عادت متأخرة ليلة الأمس فأعطيت امراً بعدم إيقاظها هذا الصباح ولكن في حوالي الساعة الواحدة اقتربت الوصيفة من سريرها وسمعتها تنتحب.. كانت على الطاولة رسالتان، إحداهما لك والأخرى لوالدتها». أخذ السيد باستور يتكلم بسرعة مذهلة كما لو أنه خشي أن يفقد تسلسل أفكاره وتابع: «لا أخفيك يا سيدي أنها في الرسالة الموجهة إلى والدتها كتبت سطراً واحداً تقول فيه (اعذريني يا أمي فلا شيء في هذه الحياة يصلح لأن نحياها)».

اغرورقت عينا السيد باستور بالدموع: لم يأتِ ذكره في رسالة ابنته إلى والدتها.... ثم قال لجونساك: «أرجو أن تقرأ الرسالة الموجهةاليك.» خيمّ الهدوء في القاعة حيث عُلّقت لوحات متراصة في أطر مذهبة لرسامين مشهورين وكان يصدر من وراء الباب بكاء مكتوم. فضَّ جونساك الرسالة بعصبية وبدأ القراءة بينما نظرات الأب مثبتة عليه:

«سيدي

عندما تستلم هذه لرسالة سأكون قد فارقت الحياة. لا تحسبني رومانسية الطباع فقد عشت طويلاً لأدرك ما تخبئه لنا الحياة وقد اتخذت قراري في الليلة الماضية.

قل لأصحابك بأنني لا أضمر الشر لهم فإنهم غير قادرين على فهم الاشياء. اذكرني دائماً وكن سعيداً مع توشي اللطيفة والغريبة.

ليليا»

استفسر الأب بلهفة: «ألم تشرح شيئاً؟» أجاب جونساك بحيرة: «لا شيء أكثر مما ورد في رسالتها إلى والدتها. هل...» لم يجرؤ على قول كلمة «فارقت الحياة»؛ شعر بالاختناق وبوهن في قدميه فجلس على كرسي دون أن يُدعى الى الجلوس. قال الأب: «سننقذها ... لقد أكد الطبيب أنه يلزمها بضعة أيام فقط لتستعيد نشاطها.»

كان موقف الرجلين حرجاً وحساساً معاً. لم يكن السيد باستور إنساناً منطلقاً فهو لا يرى أحداً ولا يخرج إذ بدا ذلك في حياته؛ لم يكن واقفاً على ما حدث لابنته في الليلة الماضية ولم يكن ليجرؤ على السؤال خوفاً من الجواب ولكنه جازف وسأل جونساك دون النظر إليه: «هل تعرف ليليا منذ زمن بعيد؟»

لم يجرؤ على الإفصاح عن أن معرفته بها لا تتعدي الايام الثلاثة. احمرّ وجهه؛ فقد خطر له فجأة أنهم ربما يعتقدونه مولهاً بابنتهم أو عاشقاً لها أو أ نه سبب شقائها!كان الاثنان مضطربين، خائفين مما قد يقولانه فتحاشى كل منهما النظر إلى الآخر. قطع الأب الصمت متنهداً وقال: «ستعود حتماً إلى نفسها، صحيح انها ابتلعت جرعة كبيرة من الفيرونال ولكن الطبيب استطاع أن يجعلها تتقيأ.»كانت نظراته الوجلى باتجاه غرفة ابنته تفضح رغبته بالدخول إليها: هل حُظّر عليه ذلك؟ سأل جونساك عما يشربه بشكل آلي ثم أخذ زجاجة من "البورتو" وكأسين قائلاً: «من المفترض أن تكون ليليا سعيدة ... إنها تسافر سنوياً إلى فرنسا أو سويسرا ... ذهبت في العام الماضي إلى "إكس - لي - بان» لتمضية العطلة مع أصدقائها

وعادت في الشتاء إلى باريس حيث تابعت في متحف اللوفر دروساً في تاريخ الفن ...» تكلم وتكلم وكأنه يحدث نفسه هرباً من صمت قد يقوم بينهما. تابع قائلاً: «لقد منحناها حرية كاملة وكل ما نطلبه منها هو التعرف على أصدقائها.» ثم أخذ بتفحص جونساك من طرف خفي وبدا راضياً عنه فقال له: «انها في الثالثة والعشرين من عمرها... اشرب أرجوك... فأنا لا استطيع ذلك لأني لم اتناول إفطاري بعد!» نهض الأب فجأة عندما انفتح باب وظهرت سيدة صغيرة بدينة، بشعرها الاشيب المبعثر وأجفانها المتورمة على عتبته. سألت زوجها عن الضيف بإشارة خفيفة من رأسها فعرّفها عليه قائلاً: «السيد دو جونساك!» ترددت قليلاً ثم حيَّته. اعتذر السيد باستور ودخل مع هذه المرأة إلى غرفة الفتاة. مضت عشر دقائق كان خلالها جونساك متضجراً كما لو كان في غرفة انتظار طبيب ما، وأخيراً جاءت الخادمة وقالت له: «اتبعني من فضلك.»سارت بخطوات خفيفة وحذا جونساك حذوها وعندما دفعت الباب ولج إلى غرفة نوم مطليّة جدرانها باللون الماسي يتوسطها سرير بغطاء أزرق برز وجه ليليا على وسادته.

بدت عيناها متعبتين ولم تكن تعلم أنها نجت من الموت. أحاطت ضفائر شعرها الاشقر الكثيفة بوجهها. وقفت والدتها الى يمينها متوجسة قلقة بينما اتخذ السيد باستور مكاناً له الى يسار السرير. تمتمت ليليا قائلة: «إنه لطف منك أن تأتي!» لم يجد جونساك شيئاً يقوله وبقيت هي صامتة أيضاً وأخذت السيدة باستور ترتب الوسادة إخفاء لمشاعرها فقالت ليليا عندئذ: «لا تنظر إليّ ... لو تعلم كم انا خجلة !!.. كيف حال

نوشي؟»أجابها: «بخير.» قالت الأم: «إن ابنتي تعبة جداً...» فاستدار قائلاً: «نعم... سأذهب» ولكن ليليا سألت: «هل ستأتي لزيارتي فيما بعد عندما أبدو أقل بشاعة!!» قال: «أعدك بذلك.»

ذلك ما كان في منزل آل باستور. لم يجرؤ على النظر حوله. فقط شد على يد السيد باستور مودعاً وهبط السلالم مسرعاً دون أن يفطن إلى استعمال المصعد. كان سينطلق فوراً إلى فندقه عندما سمع صوتاً يناديه. لم ير احداً لأول وهلة ثم لاحظ بعد قليل يد سيدة تشير إليه من باب سيارة متوقفة امام البناء. إنها نوشي! برفقة ستولبرغ. سألته حين جلس على المقعد الوسط في السيارة: «هل أنقذت؟... إننا عائدان من الشقة وقد رتب فيها كل شيء. عليك أن تأتي لرؤيتها، فالمستأجر مسافر في هذا المساء» شدت نوشي على يده بقوة وأضافت: «لقد قلت لك!» كان خلال الطريق يتساءل .. أتعني بذلك ما قالته عن ليليا أم قالته عن الشقة!! إن ستولبرغ ممتعض.

ـ ٦ ـ

ذات يوم أحد، بعد اسبوعين من ذلك، أُعلن دون استعداد يوم "تيرابيا". اسم له في تركيا نكهة فاكهة لذيذة. اسم يأخذ أبعاده في صيف نمضيه غير مبالين بالزمن، في سحر البوسفور ورونقه، في البذخ، في استعادة أمجاد ماض غابر.

وعلى بُعد بضعة كيلومترات من استنبول، قبل التقاء البوسفور بالبحر الاسود بقليل، انتشرت العديد من العوامات الكبيرة متكئة على سفح رابية، في حقول خضراء تعانق الشاطئ. هي أبنية واسعة من الخشب ترمز الاعلام المرفرفة فوقها إلى أصحابها ؛ فهناك سفارات وبيوتات خاصة لذوي النفوذ والاجانب. كانت تلمع في الخلجان هياكل المراكب السيارة النحاسية وتعكس الاشرعة رسوماتها على صفحة الماء الرقراقة.

هتف ستولبرغ لنوشي قائلاً: «ما رأيك في أن نتناول طعام

الغذاء في تيرابيا؟«قبلت على الفور دون الرجوع إلى جونساك لأخذ رأيه. لقد كانت الشمس ثقيلة على المدينة تسحقها برطوبة مزروقة. قالت نوشي وهي تضع قدميها العاريتين على السجادة: «سيأتون لاصطحابنا بعد ساعة.»

إنهما يعيشان الآن في الشقة. لديهما أسرَّة مزدوجة من خشب اللَّك الرمادي كباقي لوازم النوم. الوسائد موشَّاة بالدانتيل واصطفت على طاولة الزينة زجاجات عطر من الكريستال المحفور. إنها شقة دبلوماسي سويدي سلَّمها لهما بمحتوياتها حتى انه هناك أشياء شخصية له. قالت نوشي لجونساك: «انهض!».

هناك أيام تبدأ جيدة دون سبب يذكر وأخرى تبدأ سيئة. اما اليوم فقد بدأ جيداً: «الخادمة ماريا بدت مشرقة باسنانها ناصعة البياض وهي تقدم القهوة لهما. إنها امرأة سوداء اكتشفتها نوشي، تقوم بما يُطلب منها عن طيب خاطر. عندما تكون سعيدة تشرق شفتاها بالبسمة وتأخذ بالغناء والضحك وحدها في المطبخ لساعات طويلة، وقد تحكي لنفسها قصصاً لا نهاية لها.

طلبت نوشي الى صديقها ارتداء بزته القطيفة البيضاء كما ارتدت هي أيضاً اللون الابيض وتوشحت بوشاح صفير أخضر حول عنقها. كانا مستعدين. شاهدا من الشرفة سيارة مكشوفة حديثي العهد بها، وكان هناك ستولبرغ الذي دعاهما للنزول بحركة من يده. على الرصيف الحار قبّل ستولبرغ يد نوشي متوجهاً بها نحو شخصين آخرين كانا معه وقدمهما لها قائلاً: «إنهما صديقان تركيان طيبان ... عمّار باشا، نائب قد

يصبح وزيراً في يوم ما.... فتّاش بك الذي سيدعوكما فيما بعد إلى يَخْته.«انطلقت السيارة العائدة لأحدهما يقودها سائق بملابس فاتحة اللون. جلس التركيان على المقعد الخلفي محيطين بالفتاة بينما جلس جونساك في المقعد الاضافي وستولبرغ الى جانب السائق. ازدحم الطريق كالعادة كل يوم احد بالحافلات الغاصّة بافواج الميممين شطر الماء والسيارات على أنواعها والعربات تجرها الخيول او البغال. كان قد بدأ البعض افتراش أطراف الطريق في ظل أشجار التوت بقصد النزهة.

كانت نوشي سعيدة، شفتاها رطبتان تتقبل كلمات الاطراء من مضيفيها ببشر وسرور وتنظر الى جونساك نظرات ودية وكأنها تقول: «هل ترى؟ أليست هذه الحياة؟ نحن في سيارة فخمة بينما الناس يتعرّقون في الحافلات أو يقودون دراجاتهم على حافة الطريق!» أما النائب فرجل سمين انيق، يرتدي الحرير ويحمل منديلاً معطراً، ذو شعر أسود وعينين سوداوين تخاله الباشا الذي رُسمت صورته على علب السجائر، يتكلم بطلاقة وبصوت ناعم. أما الآخر فلم يكن يعرف الفرنسية جيداً لذلك كان يكتفي بالابتسام.

وصل الركب لعند الفندق الكبير في "تيرابيا" وكانت قد سبقتهم اليه العديد من السيارات الاخرى. توجهوا الى الشرفة حيث كانت قد أُعدت مائدة لخمسة عشر شخصاً فقال ستولبرغ: «هاهي ذي مائدتنا وسينضم الينا بعض الاصدقاء فيما بعد ... هل انتِ سعيدة يا صغيرتي نوشي؟ » لم يكن وحده من يدعوها كذلك فهناك مفتي بك ايضاً. وفي يوم بينما

كان الرجلان يتناقشان مع جونساك في أمر ما اقتربت منهم نوشي وقالت بدلال: «أيها السادة أزواجي.. أرجو أن تتفقوا!» ومنذ ذلك اليوم أصبح اسمهم أزواج الهنغارية الثلاثة....

ضحكت نوشي ورمقت جونساك بتلك النظرة التي كانت تحمل معاني كثيرة بينهما. كانا قد تزوجا منذ أيام ولم يرتب أحد بذلك. فقد ذهبا يوماً إلى "سكوتاري" في الجانب الآخر من البوسفور حيث عقد قرانهما رجل دين كاثوليكي وفي اليوم ذاته سلّم جونساك قسيمة الزواج إلى رئيس الشرطة المسؤول عن الاجانب الذي قال له دون أن يبتسم: «أتمنى لكما السعادة!» كما قدم له القهوة والسجائر وأرسل ازهاراً للعروس.أخذ الجميع يتحادثون ويحتسون الخمور تحت نظر المارة الذين كانوا يتطلعون اليهم بحسد؛ أما نوشي فكانت ترمق جونساك بنظرة من يقول «إنهم لا يعرفون! انظر حولك وتأمل جمال الحياة!». اقترح قتاش بك القيام بنزهة في عرض البحر على متن يخته الابيض المتهادي على بعد بضعة امتار من الشاطئ. كان هناك بحار بسترة موَشّاة ينتظرهم على رصيف الميناء. وصل أوسون ومفتي بك في سيارة أجرة تبعهما بعض المدعوين الذين لم تكن نوشي تعرفهم فلم تعرهم انتباهاً. كانت محور انتباه الجميع إذ شعرت بجمالها وبكونها مرغوبة من الجميع، لقد حققت قدراً كبيراً من السعادة لم تكن تتوقعه، كان النائب يغازلها دون اكتراث لوجود جونساك ولربما كان على علم بعدم أهميته!!

كانت لهذه النزهة أهمية أكبر من تلك التي كانت توليها للتأرجح في المعرض حين كانت طفلة. تناثر شعرها على

رقبتها وأخذ شالها الاخضر يتطاير في الهواء، رفعت ثوبها فبدا فخذاها النحيلان وركبتاها الصغيرتان في حين كان جونساك دائم النظر إليها. مَخَرَ اليخت عباب الماء وكأنه يشق حريراً وفي الوقت الذي التف فيه اليخت حول الرأس الذهبي تغيّر المنظر، أصبح أقل نقاء وارستقراطية إنما أكثر حيوية. تناثرت الاكواخ الريفية على الشاطئ وكان بعضها مبنياً وسط الماء. كانت هناك فرق موسيقية بثياب مزركشة... ازواج من الراقصين ... مجذفون.. سباحون وسباحات.... جمهرة متلاحمة وعريدة تحت الشمس. قالت نوشي «لنمرّ بالقرب منهم!» كانت تعلم أن الأعين مسمّرة على ذلك اليخت الفاخر السريع، على جسدها الابيض، على شالها المرفرف في الهواء كشهاب نور؛ وذلك ما جعلها أسعد حالاً. هناك... البشر، الناس، الشعب الذي تمر به بابتسامة مصطنعة متعجرفة. كانت تودّ لو تصرخ لجونساك وتقول: «أنظر اليهم... لقد جاؤوا في حافلات، متراصين بعضهم فوق بعض، عاجزين عن دفع ثمن شراب الليمون الذي يطفئ ظمأهم، إنهم ينتظرون ساعات طوال على أقدام منهكة، ورؤوسهم خاوية لتتسنى لهم حافلة تقلّهم إلى استنبول!» ثم أمرت بصوت عالٍ «لنعد!» انها ترتعد من فكرة العيش هكذا من جديد! يا ليتها عاشت هكذا... فقد تعرضت لما هو أقسى من ذلك بكثير. سألت الريان: «هل كنّا مسرعين؟» أجابها: «خمس وعشرون كيلو متراً في الساعة!».

وبينما كان المدعوون يجلسون الى المائدة التي أُعدت لهم اغتنمت نوشي الفرصة للإمساك بيد جونساك والضغط عليها بشدة مؤكدة اتحادهما. جلست نوشي كالعادة بعيدة عن

جونساك الذي صادف مكانه إلى جانب رجل تركي لم يكن يعرفه والذي بادره بالقول: «لوكنت على دراية بشعرائنا الاقدمين لفهمت أتراك اليوم!» أخذجونساك يقرأ الشعراء الاتراك بشكل آلي وبسمة حزينة ترتسم على وجهه، أما جاره فقد ابتهج وقال باستغراب: «هل من الممكن أن يعرف أجنبي...» تعليق طبيعي، إذ أن جونساك يرتدي القطن الابيض ويضع مونوكلاً وربطة عنق ملونة... بامكانه قراءة الشعر بالالمانية ايضاً وسرد القصص الشعبية الهنغارية باللغة ذاتها... سأله جاره باهتمام: «هل أنت مدرس؟» اجاب جونساك: «كلا ولكنني درست قليلاً!».

جلست نوشي قبالته في الجانب الآخر من المائدة تشع بالحياة مما أضفى على وجهها جمالاً فوق جمال. جلس مفتي بك بجانب رجل آخر لم يكن جونساك يعرفه، وأخذ يسرُّ اليه بكلام موجهاً بصره إليه. لقد كان يسأله حتماً عن ذلك الشخص الذي يضع المونوكل لأن مفتي بك التفت الى جونساك ثم الى نوشي مبتسماً بمكر. تساءل جونساك عن إجابة هذا الأخير، احمر وجهه لحظات ثم أخذ يأكل دون تفكير.

توجه المدعوون الى اليخت حين فرغوا من الطعام تنفيذاً لاقتراح النزهة. أمسكت نوشي جونساك وقالت له بلهجة حازمة تخلو من مرحها السابق: «تعال معنا.» دخلا والنائب الى بهو في الطابق السفلي ثم قالت له: «لقد أبلغني عمار باشا شيئاً ذا أهمية.» ابتسم هذا ابتسامة عريضة ثم تابعت: «هناك مشروع توسيع لمضمار السباق في أنقرة وقد يتوسع ليشمل

ملعباً حديثاً لرياضات متنوعة. لقد تقدم الالمان والايطاليون كمتعهدين؛ فإن استطعت أن تشكل فريق عمل فرنسي فإن عمار باشا سيساعدك في الحصول عليه.» ثبت نظرها على جونساك ثم قالت لعمّار باشا: «إنه مشروع بقيمة خمسين مليوناً تقريباً، أليس كذلك يا عمّار؟» ولما اجاب بالأيجاب تابعت قائلة لجونساك: «ستذهب إليه في الغد وهو مستعد لتزويدك بالمعلومات اللازمة.»اخذ الآخرون يفتشون عنهم ولما اطلّ مفتي بك برأسه من الباب قالت نوشي «لنذهب». لم تكن الريح قوية لدفع أشرعة اليخت على مياه البوسفور الهادئة، وكما في عوامة ستولبرغ فقد كان عليه جهاز حاك يطلق ألحان التانغو ذاتها، واغان غجرية اخذت نوشي بمرافقتها بصوت حاد. ثم هناك الشراب.. الكثير منه... أثار اليخت الفاخر فضول مراكب الاجرة والقوارب المجذافية المنتشرة في البوسفور فكانت تقترب منه تتفرج على الاغنياء وهم لاهون.

قال مفتي بك مازحاً «إن زوجتنا تهملنا» مشيراً الى نوشي الجالسة بين اثنين من الاتراك ثم وجّه حديثه الى جونساك قائلاً: «كيف استطعت الحصول على امرأة كهذه؟! لقد وقعت استنبول كلها صريعة حبها». لم يجب جونساك. ثم تابع مفتي بك قائلاً: «إن عمّار باشا شخصية مهمةفي تركيا إضافة إلى أنه سياسي كبير.»

لم تكن نوشي أكثر سعادة مما هي عليه: تضحك للجميع وتقهقه ملء صوتها. وبينما كان البحاران الاثنان بثيابهما المطرزة بالفضة والمنقوش عليها اسم اليخت يخدمان المدعوين، ظهر قتاش باشا معتمراً قبعة بيضاء خطفتها نوشي

عن رأسه وهي تقول بصوت مرتفع: «برنار! نحن ايضاً يجب أن يكون لنا مركب». وسمع جونساك قتاش باشا يجيبها قائلاً: «إن هذا اليخت تحت تصرفك في أية لحظة، سأوجه أمراً للعاملين على متنه بخدمتك دوماً.» التفتت إلى جونساك وقالت له: «هل سمعت يا برنار؟» . لم يكن ستولبرغ مرحاً كعادته وأغلب الظن أنه ندم على تقديم نوشي لشخصيات أكثر نفوذاً منه. اقترح العودة قائلاً: «قد يصبح الجو بارداً في الليل...» اعترضت نوشي وسألت: «هل يمكننا العودة الى استنبول في اليخت؟» أجابها صاحبه: «إذا كنت تريدين ذلك... يكفي أن تأمري بذلك!» احتج ستولبرغ قائلاً «والسيارة التي تنتظر؟!» «دع السائق يعدها» أجابه باقتضاب قتاش باشا.

تلك هي الحياة بالنسبة لنوشي وهاهي ذي تحياها: تستنشق الهواء بكل حواسها وتتمتع بطلاوته، بحرارة الشمس ورطوبة البوسفور الملذّة. إنها تبدو في قمة جمالها وسعادتها أما جونساك فلم يكن يعرف لماذا يريد البكاء!! كانت نظراته الزائغة مثبتة على المياه باتجاه الشاطئ. أخذت السماء تتلون بحمرة الفسق فبدأ مفتي بك المأخوذ بالمنظر بالقاء الشعر متمشياً على سطح اليخت وحيداً. كان اليخت يمر أمام السفارات المتعددة ثم مرَّ بالعوامة التي تبعتها بيوتات بورجوازية وشقق فاخرة يملكها تجار بيرا الاغنياء ميمماً شطر استنبول. انتشرت المراكب هنا وهناك حول اليخت تمر به عائدة فقد انتهى عيد "تيرابيا"، ومع اقتراب اليخت من المدينة أخذت تلوح منازل سقوفها من الآجر الاحمر، نوافذها خضراء اللون وحدائقها مزهرة بالورود، ترفل فيها سيدات مسنّات

ورجال يرتدون الثياب غالية الثمن فاتحة اللون. اعتادت نوشي أن تنادي جونساك كلما مرت بشيء ملفت للنظر ومرّة قالت له: «برنار ... أنظر الى ذلك المركب الصغير الأصفر» كان هناك بالقرب من منزل أبيض اللون خفّاف يتقدم بهدوء دون اتجاه معين تجدف فيه فتاة شابة وحيدة؛ كانت على بعد مئة متر تقريباً من اليخت. تقدمت نوشي من الدفة وحوّلت وجهة اليخت محاولة الاقتراب من الخفّاف. رأت ليليا فيه وعرفها الجميع قبل أن تتعرف هي عليهم. رفعت ليليا رأسها عندما أصبح اليخت بمحاذاة خفّافها ورأت نوشي وجونساك. لوحت لها نوشي بشالها قائلة: «هل تأتين معنا؟» هزت ليليا رأسها أن كلا وبقيت بلا حراك في مركبها الاصفر. أشاح جونساك بوجهه الى الجهة الاخرى إذ لم يكن ليستطيع البوح بمعاناته.. إنه حزين حزن الغسق، تكتنف افكاره غمامة سوداء كما ينتشر الضباب وتبهت على خلفيته مآذن المدينة.

كان المنزل الابيض منزل عائلة باستور، وقد رأى رغم المسافة التي تفصله عنه، السيدة المسنة وراء طاولة عليها ما يلزم للخياطة، والأب ذا الشعر الاشيب واللحية الصغيرقيجلسان على مقاعدالحديقة الخضراء. كانت نوشي قد أكدت أن ليليا افتعلت قصة الانتحار لتثير اهتمامه بها ولتجعل أواصر المودة بينهما قوية، وأن عليه أن يذهب إليها ويتقصى أخبارها . وهكذا فعل.

عندما زارها للمرة الثانية استقبله أهلها بحفاوة وقدموا له الشاي والحلوى وكان أهلها يتفحصونه بفضول تمتزج فيه معاني الاستحسان والحذر فهو بالنسبة لهم رجل غريب قد

يأخذ ابنتهم منهم، لم يرتابوا لحظة بوجود نوشي في حياته فقد كان تصرفهم حذراً مشجعاً تارة ومتحفظاً تارة خرى.

قدمته ليليا بقولها: «السيد دو جونساك، ملحق في السفارة الفرنسية» لم تقل لهم إنه مجرد مترجم وأغلب الظن أنهم سألوها إن كان اسمه يُكتب بكلمة واحدة أو بكلمتين!! مرَّ في خاطره ما كانت تقوله نوشي: «يجب أن تستمر بمعاشرتهم فلا أحد يدري!!» لا أحد يدري ماذا؟ لقد بدأ يصدق أن ليليا تحبه إذ أن اسئلتها المتكررة عن نوشي كانت توحي بغيرتها منها.

كانت دائماً تسأله عنها كأن تقول: «كيف حال معبودتك نوشي؟» أو «ألا تجد نوشي غريباً أن تراني؟» ماذا كانت تعرف ليليا عنهما؟ إنها على علم بعيشهما سوية أو ربما تظن أنهما عاشقان. فقد سألته ذات يوم: «هل تعرف نوشي منذ زمن؟» ولما أجابها بالنفي قالت له: «إني أكن لها الكثير من الود.»

غيّر اليخت مساره باتجاه رأس الذهب ولم يكن جونساك ليجرؤ على النظر إلى الوراء حيث زورق ليليا دون حركة على مياه البوسفور. ألم يكن زورقها كباقي الزوارق التي كانت تحوم حول اليخت يدفعها إلى ذلك شكله الفاخر وحجمه الكبير والفرحة التي تعم على متنه؟! إنها الآن حتماً في طريقها إلى المنزل لتناول العشاء مع والديها والعزف لهما على البيانو! عاد جونساك من شروده على صوت نوشي تناديه. إنها تفتح زجاجة شمبانيا وعلى رأسها قبعة صاحب اليخت. قالت له: «برنار، لقد اقترحت على أصدقائنا أن نكمل الحفلة في شقتنا وأخبرتهم أنه لا يوجد لدينا شيء من مستلزمات الحفلة، لذلك

سنشتري ما يلزمنا لذلك عند مرورنا في شارع بيرا. لم يقوَ على الرفض فقد كان متعباً معتصر القلب من تخيل ملحقات حفلة الدعارة هذه صباح الغد. كانت نوشي تتحدى التعب والإرهاق طالما أن عشاقها مستعدون للحاق بها وتلبية رغباتها.

مرَّ اليخت امام "الدولما - باشي"مشعشعة الانوار، قصر السلاطين الغابر. أشار عمار باشا إلى الطابق الاول منه وقال: «إن الغازي هنا». تذكر جونساك أول ليلة له في أنقرة أما نوشي فعلّقت قائلة: «إن له عيوناً غريبة جذابة ومن المؤسف ألا يكون معنا!» فأردف عمار باشا قائلاً: «قد أقدمك إليه ذات يوم!» أجابت بغموض: «ذلك ليس ضرورياً..» سألها فيما إذا كانت قد التقته فقالت: «نعم. لقد أمضيت ليلة معه في مزرعته بأنقرة.. أليس كذلك يا برنار؟!» رأى برنار نظرة حقيرة ترتسم على محيا مفتي بك وكان ستولبرغ ينظر في اتجاه آخر. فقال عمّار ببذاءة: «إذن فأنت تعرفينه أكثر مني!!» وتستمر الحفلة حتى الصباح.

في السابعة صباحاً كان الغازي في مكتبه ومساعدوه حوله. إن نومه لقليل.

تابع اليخت طريقه وبدت استنبول بأنوارها المتوهجة. مرّ قرب بواخر نقل راسية عند الميناء وعليها بحارة اتكؤوا على درابزين متراسها.

كانت سيارة عمار باشا بانتظارهم في الميناء ولم تكن لتقلّهم جميعاً. استقل جونساك ومفتي بك مع اثنين آخرين سيارة أجرة وعندما أصبحوا داخلها علّق مفتي بك بقوله: «لم

تكن ابداً زوجتنا مرحة كما كانت اليوم!» ارتعش جونساك فقد كان في تلك اللحظة يفكر بليليا الوحيدة في مركبها الاصفر ثم قال: «نعم، كانت مرحة جداً» فتابع مفتي بك: «وكذلك عمار باشا، كان أكثر منها مرحاً».غرق جونساك في مقعده ولم يجب، وحين دخلا الشقة كانت الانوار مضاءة والمائدة مليئة بانواع كثيرة من المأكولات من لحم الخنزير إلى الشمبانيا. تابع قتاّش وستولبرغ فتح الرزم التي ابتاعوها وسأل مفتي بك: «أين نوشي؟» لم يسأل جونساك عنها لأنه رآها وعمّار باشا من خلال باب غرفة الحمام. كان هذا ممسكاً بكتفيها يدغدغهما وهي تحاول الافلات منه ضاحكة تهدده بمرطبان من الكريم كان في يدها. خرجت بعدها ومرّت بجانبه ثم قرصته بطرف إصبعه بشدة كاد أن يصرخ لها من الألم.

- ٧ -

جلس جونساك في مكانه المعتاد قرب النافذة في مقهى "أفرونوس"، فزبائن الظهيرة غير أولئك الذين يأتون في المساء؛ يأتون بأوقات محددة، يأكلون بصمت ويقرؤون الصحف ثم يذهبون إلى أعمالهم بعد تحية الحاضرين. إنه يوم شديد الحرارة فحجارة الطريق البيضاء تحرق الاقدام بحرارتها، وفي مثل هذا الوقت الحار كان مقر السفارة قد تحوَّل من استنبول إلى ضفة البوسفور. أخذجونساك يفكر اثناء تناوله الطعام بجملة قالتها له نوشي هذا الصباح. لقد قالت له: «إنها تحبك لأسباب تختلف تماماً عن تلك التي أحبك من أجلها.» في مثل هذا الوقت قد تكون نوشي تتناول طعام الغذاء مع أحدهم: عمار باشا! ستولبرغ! مفتي بك! لقد أصبح من عادتها الخروج مع أحد ما ظهراً. أما جونساك فهو يخرج في الحادية عشرة صباحاً، يمر إلى السفارة، يأكل في الخارج

وقد لا يرى زوجته إلا في منتصف الليل. كانت غالباً ما تترك له رسالة في فندق بيرا تخبره فيها عن مكان وجودها مساءً. يعمل توفيق بك، أحد أصحابه، صحافياً في جريدة لاربع أو خمس ساعات يومياً أما الباقون فلا عمل لهم. يلتقون في الصباح ويتمشون جيئة وذهاباً في شارع بيرا الرئيسي. علم جونساك من رسالة تركتها له نوشي، أنها ستكون هذا المساء في الأوبرا برفقة عمار باشا وطلبت إليه فيها موافاتها خلال الفصل الثاني من المسرحية. أضحت نوشي واحداً منهم يتكلمون عنها وكأنها إبنتهم المتبناة... خطر في باله قولها إن ليليا تحبه لاسباب غير اسباب حبها له... قد يكون ذلك صحيحاً!! تخيلها وهي تقول له: «ليليا تظنك قوياً.. أتفهم؟ المونوكل، خشونتك، رباطة جاشك تؤثر بها. إنها تستطيع الاعتماد عليك دون تردد...» وتذكر ابتسامة نوشي الطيبة وهي تقول: «أراهن أنها تحبك بسببي... فهي ترانا دائماً معاً نعيش حياة صاخبة، نركب سيارة ونقيم حفلات ليال بطولها. لقد اقتنعت أنك السبب في هذه الحياة الحلوة وأنني لست سوى انبعاث منك، شيء خلقته أنت.»

ساعة مضت وهي تقول ذلك جالسة على سريرها منهمكة في طلاء أظافرها عندما قال لها بمرارة دون أن يتوقف عن حلاقة ذقنه: «إني لا أرى لماذا تعيشين معي!؟» أجابته بصدق: «لأنك أنت... ولدكبير خجول وشاعري يخشى كل شيء.»

لقد غادرها صباحاً دون أن يودعها متأكداً من صحةكل ما قالته. أما لماذا اختار وضع المونوكل!؟ فقد كان سكرتيراً لنائب معروف بسلاطة لسانه في المجلس وخشونة طباعه في

حياته الخاصة. لم يتقاض أي أجر مذ شغل هذا العمل فقد أراد فقط أن يتدرب على الأمور السياسية. كان يرتعد خوفاً من سيده حين يغضب ويتحاشى عندها دخول مكتبه، فخطرت له فكرة المونوكل عندما رآه على وجه دبلوماسي ألماني. جرّبه لاسابيع طويلة في غرفته قبل أن يظهر به أمام الناس إذ إنه كان يخشى بسمة هازئة أو تهكماً بسيطاً وكان يفقد توازنه إن التفتت إليه فتاة مبتسمة ويسرع إلى الاحتماءأمام واجهة دكان قريبة. كان يخشى أن يجرح أحداً أو يتصرف بوقاحة أو يؤخذَ مأخذاً سيئاً، بحاجة لتقدير الآخرين ويوافق دوماً على اقتراحات غيره.

عاود التفكير بتحليل لنوشي عندما قالت: «تذكر يا برنار ما أقوله لك.إن الفتيات أمثال ليليا أكثر جرأة منا. فهن يلاحقنك إلى أن ترضخ». لقد تيقّن من قولها إذ أنه تلقى بالأمس مكالمة هاتفية من ليليا وكان وحيداً في الشقة. سألته بصوت هادئ: «هذا أنت؟ ثم اضافت بجرأة واضحة، هل نوشي معك؟» أجابها: «كلا! لقد خرجت للتو» فسألته: «ماذا تفعل في هذه الايام؟ إني ضجرة حتى الموت.» صمت ولم يجب فتابعت قائلة: «يجب أن نلتقي على الغداء ذات يوم، نوشي وأنا، كما فعلنا من قبل. هل تذهب باستمرار إلى مقهى "أفرونوس"؟» أجابها: «كل يوم وقت الظهيرة.»قالت بتحد: «لقد بدوت فرحاً على اليخت يوم الأحد الماضي...» فأسرع يجيب: «اؤكد لك اني لم أكن فرحاً البتة.»فقالت بعفوية: «انك تقول ذلك فقط! اسمع... سأدعك لمشاغلك، قبّل نوشي عني.»

ذهب إلى السفارة في "تيرابيا" هذا الصباح ولم يتناول غذاءه هناك، أتى إلى مقهى "أفرونوس" فقد فهم حديث ليليا على انه اقتراح لموعد هنا. لم يقرأ الصحيفة بل أخذ ينظر إلى الشارع المشمس والمارة من أهل البلاد يحملون السلال على رؤوسهم. جاء السيد "أفرونوس"، صاحب المقهى وصافحه قائلاً: «هل كل شيء على ما يرام. »«نعم» أجابه.

يَعتبر السيد "أفرونوس" وزبائن المقهى جونساك شخصية مهمة ومحترمة لذلك تابع صاحب المقهى التحدث معه بودٍ قائلاً: «لم نعد نراك في المساء كالعادة... يبدو أنك تسرف في الراح والليالي الملاح...!» ابتسم خفية واتكأ باتجاه الشارع عندما سمع هدير محرك سيارة يتوقف في طرف الزقاق، لم يستطع السائق متابعة طريقه فيه بسبب الزحام.هبط من المركبة خيال مديد القامة ولمح ثوباً ابيض: إنها ليليا. مشت بتكلف ولا مبالاة كمن يأتي بدافع الفضول لزيارة سوق السمك. لمح جونساك انقباضاً في وجهها وتساءل عن مدى جرأتها في الدخول مباشرة إلى المقهى. ترددت برهة ثم تابعت سيرها متمهلة فقام جونساك وأزاح ستاراً أبيض عن المدخل منادياً: «ليليا!» . كانت لقمة حلوى في فمه ومنديله في يده. التفتت الفتاة وتظاهرت بالمفاجأة وقالت: «كنت هنا» ثم مدت يدها مصافحة ونظرت الى الداخل بفضول. إنها المرة الأولى التي تأتي بها إلى هذا المكان. بادرته قائلة: «يبدو المكان مسلياً!» فقال: «تعالي! هل تناولت طعام الغداء؟» قالت: «نعم، إننا نحرص على عادة الأكل في وقت مبكر» فقال: «إذن فأنت تأخذين القهوة!؟» سارع إلى سحب كرسي إلى طاولته لتجلس

عليه ثم نادى السيد "افُرونوس" يطلب فنجاناًمن القهوة. لم يجرؤ على متابعة المضغ أمامها إذ خال ذلك مضحكاً فقالت له: «أكمل طعامك أرجوك.» فقال: «لقد انتهيت منه والحلوى غير شهية.» استعاد بذاكرته ما كانت نوشي قد قالته في الصباح - إنهن أكثر جرأة منا . فغدا أكثر ثقة وفخرابنفسه وقد أتت ليليا اليه. قالت له ليليا: «الا ترى أن استنبول لا تُحتمل في الصيف؟ في مثل هذا الموسم أذهب عادة إلى فرنسا أو سويسرا ولكن الأزمة الاقتصادية هذا العام حالت دون ذلك» ثم سألته: «هل أخذت عطلتك السنوية؟» اجابها على الفور: «لقد أخذتها في الشتاء.»

فرغ المقهى من الزبائن ولم يبق سواهما إلى جانب النافذة بينما كان أحد الخدم يرتب المناضد استعداداً للمساء، فسألته: «ماذا ستفعل بعد الظهر؟» لم يعرف بماذا يجيب. كان عليه أن يذهب كعادته إلى السفارة وإتمام بعض الاعمال في المكاتب الرسمية... قد يستطيع تأجيلها إلى الغد... عاد إليها وهي تسأله: «هل ستلتقي بنوشي؟» فأجاب «في المساء فقط!» وفكر - ... إنهن أجرأ ... - وهذه جرأة منها. تابعت وهي تتصنع التفتيش عن شيء في حقيبتها متمتمة: «كنت أود في هذا القيظ أن أذهب إلى ينبوع "مياه اوروبا العذبة" »أجابها «إذا سمحت بذلك فسوف أذهب معك.» «وماذا ستقول نوشي؟» سألته، فبادر بالقول «لا شيء» فقالت: «هل هي غيورة؟» أجابها: «لا أعتقد ذلك» (آه لو سمعت نوشي ما أسمعه الآن) كان جونساك أكثر ارتباكاً اليوم منه يوم غازل امرأة للمرة الأولى. طلب الفاتورة ناسياً أن له حساباً مفتوحاً عند

"أفرونوس". أخذ يفتش عن سيارة أجرة فاقترحت ليليا الذهاب بالقارب وهناك يستأجران حميراً توصلهما إلى المكان. كان عليهما أن يشقا طريقاً في وسط الجسر بين الجموع المتوجهة مثلهما باتجاه المرسى. كانت المراكب تأتي وتغدو بلا انقطاع والحافلات تسير في كل الاتجاهات: نحو سكوتاري، حيدر - باشا، برينكينو وتيرابيا. لو أن نوشي برفقته لتذمرت من الاكتظاظ وطلبت سيارة أو مركبة بحرية! أما ليليا فهي سعيدة معه. لقد اعتادت ركوب البحر إلى منزلهم على ضفاف البوسفور أيام كانت تجتمع بعائلتها هناك؛ وهاهي تختار موقعاً جيداً على السطح قبالة فلاحة تحمل سلة على ركبتيها، تستنشق بقوة الهواء المنعش وتقول: «كم أنا سعيدة!»

هذا النوع من النزهات البحرية جديد على جونساك خاصة بصحبة فتاة شابة. لم يلتفت إلى ثمن التذاكر إلا بعد أن صممت على دفع ثمن تذكرتها بنفسها قائلة: «لنتصرف كأصدقاء وإلا لن أذهب معك بعد الآن. فأنا أتصرف هكذا مع أبناء عمي وقد اعتدت على ذلك من وجودي في باريس مع أصدقائي. كان مسار هذه النزهة شبيهاً بعض الشيء بمسار تلك التي قاموا بها يوم الأحد في اليخت. فقد ذهب بهما المركب إلى مكان أبعد بقليل من تيرابيا قرب البوسفور إلى منطقة ارتسم فيها واد رطب مخضر تتدفق فيه الينابيع؛ منطقة تدعى «مياه اوروبا العذبة». توقف المركب خلال الرحلة في الكثير من المراسي لانزال وحمل المتنزهين. أطلت أوزة برأسها من السلة التي كانت تحملها الفلاحة فداعبت ليليا رأسها بأناملها البضة ثم قالت: «هل ترى منزلنا! إنه جميل

وحديقته كذلك... لكنه يصبح حزيناً عندما يصاب والدي بنويات ألم المفاصل» كان جونساك قد رآه ورأى المركب الاصفر الراسي في شبه ميناء بقربه. قالت له فجأة: «هل تعلم أني مستاءة منك!؟» أجابها: «لماذا؟» قالت: «يوم كنتم في اليخت رأيت الاشخاص أنفسهم الذين كانوا في تلك الليلة..... إنه حمق مني... كنت أعتقد أنك لن تراهم بعد تلك الليلة المشؤومة... ماذا قالوا عني بعدها!؟» كذب وقال: «ماكنت لأسمح لهم بقول شيء! ولكني أراهم لحاجتي إليهم. انهم غير مهمين!» إلى متى سيتحدث بلسان نوشي!! حتى في أدق التفاصيل!؟! سألته ليليا: «ألا يعملون شيئاً!؟!» أجابها: «لا شيء يُذكر! لو كنا تحت حكم النظام القديم لكانوا اغنياء من ذوي المراكز في الجيش والحكومة أما الآن فهم لا يملكون الشجاعة للقيام بأي مهنة. يفضلون العيش من الايرادات القليلة التي تردهم. إنهم يملّون في عالم يرفضون الانتماء إليه. توقف المركب في المحطة الاخيرة ونزل منه الجميع. هبت ريح خفيفة تحمل عبق البحر الاسود الذي يبدو من بعيد وراء رأس الذهب. تبعت ليليا الجمع مطرقة برأسها ثم تمتمت فجأة: «سأسألك سؤالاً لا تجب عليه إذا أردت!.. هل .. كلا لن أسأل.» قال: «اسألي ارجوك» فقالت: «ستفكر سوءاً بي... أفضل عدم السؤال.» قال: « قولي ارجوك» فقالت: «هل انت متزوج؟» لولم يكن مختبئاً خلف المونوكل لكشفت اضطرابه فقال بسرعة: «من نوشي؟» قالت مبتسمة: «طبعاً من نوشي! إلا إذا كنت تملك حريماً..» فقال «لا! لست متزوجاً» التفتت فلم ير أثر جوابه على وجهها. أضافت: « هل يعرف احدكما

الآخر منذ زمن؟» فقال: «كلا! ليس من زمن بعيد» تابعت: «هل صحيح أنها راقصة؟» قال: «نعم لقد كانت راقصة. من قال لك ذلك؟» اجابت: « أوسون ومفتي بك» نظرت حولها وهتفت بمرح: «اننا محظوظان فهناك حمير شاغرة!». اندفعت نحو السائس التركي وفاوضته على الثمن ثم قالت لجونساك: «أيهما تريد؟ أظنك تريد الحمار الكبير... لا أدري كيف ستبدو فوق حمار صغير». أحس بنفسه مدعاة سخرية وتهكم خاصيّن وأنه كان يتبعها كظلها في الطريق الممتدة على تخوم الوادي. شعر بالهواء ثقيلاً ربما بفعل تشعبات النباتات أو من عطر الازهار السكري أو حتى من طيران الحشرات المستمر.

جلست فوق السرج مدلية فخذيها إلى جهة واحدة منه. ونظر اليها جونساك نظرة جانبية رأى من خلالها بياض فستانها، خط نقرتها ورقعة وجنتها البيضاء فقال في نفسه: «لن تكون مسرورة قبل أن تصل إلى ما تبغيه!» .... نوشي ايضاً... إنها تلاحقه في حين كان يظن نفسه بعيداً عنها. استدارت ليليا باتجاهه وسألته: «بماذا تفكر؟» أجابها: «لا شيء!» فقالت: «ولكنك تبدو حزيناً.» لم يجب وتابعا الطريق بصمت وكلاهما سوداوي المزاج. تنهدت ليليا وقد رسمت على وجهها ابتسامة باهتة قائلة: «ياليتني قد مُتّ!» أجابها جونساك: «ارجو ألاّ تذكري هذا بعد الآن... ابداً.» قالت: «لقد أخبرني والدي أنك أتيت إلينا فور إبلاغك بانتحاري. لم يكن يعرفك أو يعرف كيف يستقبلك فقد سألني فيما بعد عدة أسئلة بشأنك.» ضحكت وهي تتمايل فوق ظهر الحمار وتابعت: «مسكين والدي! لم أره مرتبكاً أو خجولاً كما رأيته تلك الليلة.

كـان يتوهم اشـيـاء رهـيـبـة لا يجـرؤ علـى الحـديث عنهـا يحـاول طمـأنة نفسـه بكلمـات غيـر متـرابطة. أمـا والـدتي فكـانت أكثـر وضـوحـاً منه. كانت تخشى أن أكـون حـاملاً وقـد عـاشت في هـذا القلق حتـى ظهـرت أنـت...» أحمّـر خـجـلاً فـتـابعت: «.... أنت تفهم الآن سبب نظرات والدي الفضولية نحوك!».

صـمتا من جديد. وصل بهمـا الحمـاران إلى كوخ صـغيـر يقـدم مشـروبات مثلجة تفرّق حوله المتنزهون يفتشون عن بقـعة عشب خضـراء يفـتـرشـونـهـا، يأكلون فـوقـهـا ويسـمـعـون المـوسـيـقـى. كـان اليـنبوع متدفقاً والبسـاتين ترصـع الرابية بأسـرة خضـراء تلمع تحت نور الشـمس. توقـف حـمـار ليليا من تلقـاء نفسـه فـربطه الصـبي الصـغير الذي كان يقوده إلى شجيرة صغيرة كما نزل جونساك عن دابتـه قـائلا لهـا: «أتسـمـحـيـن لي بدعـوتك إلى بعض الشـراب المنعش؟» سار الاثنان مع الصبي خلف الكوخ الصغير عبر بستان أخضـر باتجاه الوادي. أمسك جونسـاك بيد رفيقتـه وقـد أثاره ذلك. قـال الصبي مشيراً إلى موضع كثيف الشجر: «هنالك! مـاذا أحضـر لكمـا؟» قـال لـه جونسـاك: «شـراب الليـمون من فـضلك.» كانت هناك تحت الشـجيـرات طاولة من الخـشب ومقـعد دائري. وعندمـا عـاد الصـبي بالزجـاجـات المثلجة والكؤوس كـان الاثنان صـامـتين. فتحت ليليا حقيبة يدها وأخذت تصلح من زينتهـا ثم قالت: «أنظر! كأنك تنظر إلى بطاقة بريدية ملوّنة» فأجابها قائلاً: «كم من بطاقـات بريدية كـانت أكثـر تعـبيـراً من رسـائل طويلة!» اجابت «هذا صحيح.» ومرّت من جديد كلمات نوشي في خاطره. ستـصل إلى غـاياتهـا. حـاول بعناد وإصـرار طرد صـورة نوشي من مخيلته أو أنه حاول أن يتحدى ما كان يجول في خاطره.

كانا في مأمن من عيون الناس يسمعان أحاديث العابرين القلائل دون رؤيتهم، وذباب يطن حول رأسيهما. أخذت تتكلم بعصبية وهي تنظر حولها بقلق إذ كانا قريبين جداً. نظر جونساك إلى عنق ليليا الوردي وعقد من اللؤلؤ يتدلى حوله فشعر بحرارة جسدها الساخن. تململت عن غير قصد منها فتململ هو الآخر وأمسك بذراعها العاري عند الإبط فالتفتت مذعورة وقالت: «لماذا أتينا هنا؟ ماذا تفعل؟ كلا...»

كانت مقطبة الحاجبين تنظر إليه بحزن لكنها لم تقاوم. تركت الرجل يجذبها نحوه وانزلقت شفتاه تقبلان وجهها وشفتيها. كان لتلك القبلة طعم الصيف، طعم الهواء الطري، طعم الجنس تحت اشعة الشمس، طعم نبات كما لو ان الطبيعة شاركته هذه القبلة. وبعينين نصف مغمضتين رأى جونساك عيني ليليا تنظران إليه بحدّة، كانت النظرة قريبة جعلته يرتعش منها، سقط المونوكل عن عينه على ذراع ليليا قبل أن يرتطم بالأرض ويتحطم. حينئذ أفلتت الفتاة من بين ذراعيه وانحنى إلى الأمام يبعد بقدمه قطع الزجاج قائلاً: «إنه زجاج أبيض وذلك فأل حسن!» كان أحمر الوجه لاهب الجسد. نهضت ليليا وقالت: «هيا بنا! يجب أن نعود... هل دفعت ثمن المرطبات؟» أجابها بارتباك: «نعم... لا ادري ... سأنادي الصبي.» كان في حالة يرثى لها خاصة وأنه افتقد المونوكل فقال لها بتلعثم: «إنني اشبه بومة تائهة في الشمس أليس كذلك؟ إني مصاب بقصر نظر كما تعلمين...»

وقفت منتظرة أن يستعد للذهاب ويختفي أثر الاضطراب الذي بدا عليه. كان ذهابهما على عجل سبباً في استغراب

الصبي. بقي جونساك على الارض ممسكاً بزمام دابته وقال: «عادة ما أحمل مونوكلاً إضافياً معي!» فعلقت قائلة: «ولكنك اليوم لم تحمله!»هل ستعتبره هي الأخرى ضعيف الشخصية والارادة؟ مضت ساعة تقريباً ينتظران تحت أشعة الشمس الحارقة التي قدحت رأسيهما من انعكاسها على مياه البوسفور؛ كانا ينتظران مركبا يقلهما إلى المدينة. سألها قائلاً: «هل أنت آسفة على ماحصل؟» شعر في تلك اللحظة أنه يكبل نفسه بأغلال الضعف والوهن فأطرق كمن أصابه دوار ثم تمتم قائلاً: «اسمعي! يجب أن أراك ثانية فهناك أمر في منتهى الجدية أريد أن أبحثه معك» نظرت اليه مندهشة فأكمل قائلاً « أشياء كثيرة أريد أن أقولها لك .. لا اريد أن تعتقدي ...» لم يجد الكلمات المناسبة لإتمام حديثه وتهادى المركب الذي سينقلهما مندفعاً فوق صفحة الماء في تلك الطبيعة الخلابة. ثم عاد ليقول: «لم يكن محض صدفة ما أقدمت عليه منذ قليل، فأنا منذ مدة لم ...»أجابته بهدوء: «ونوشي!» قال: «ليس لنوشي قيمة وأنت تعلمين انها مجرد حيوان صغير مرح.»

تملكه الخجل ولكنه شعر في تلك اللحظة أنه بحاجة لإلغاء وجودها من حياته، بحاجة للثأر من حرجه بشخصها. لم يفلح في عناقه ذاك وبدت ليليا هادئة فسارع للقول: «اكرر لك، لدي الكثير الكثير أقوله لك، متى أراك؟» لم تعطه موعداً واكتفت بالقول إن هناك متسعاً من الوقت من اجل ذلك.

انقضت ساعة من الوقت وهما مع بقية المتنزهين على المركب. كانا صامتين وجونساك يحدق في الماء حزيناً، ويحاول استجماع شجاعته. ألح عليها قائلاً: «لم تحدي لي

موعداً!!» فقالت: «أفكر بنوشي!» فقال بصوت متهدج: «لقد قلت لك...» أجابت: «أعرف ذلك» وعادا إلى الصمت.

توقف المركب بالقرب من منزل آل باستور فنهضت ليليا ومدت له يدها بعفوية صادقة وقالت له: «قد أوافيك غداً عند الظهر في مقهى "افرونوس"!» تمنّى أن يكون الموعد في مكان آخر ولكنه لم يقل شيئاً. وعندما دخل بعد قليل إلى بار فندق "قصر بيرا" ليتسقط أخبار نوشي وجدها هناك برفقة عمار باشا الذي وقف لتحيته. أخذت نوشي تضحك مشرقة وقالت: «لقد تمت جميع الترتيبات وسيطلعك صديقي عمار باشا على كامل المشروع فيما بعد، عليك أن تقرر فقط شخصية المدير التركي للمصرف.» كان جونساك قد ابتاع في طريقه إلى الفندق مونوكلاً آخر أعاد له ثقته بنفسه وطلب لنفسه قدحاً. قالت له نوشي:

ـ هل ذهبت ليليا للقائك في مقهى "افرونوس"؟

ـ من قال لك ذلك؟

ـ هنا، الكل يعرف كل شيء. أخبر السيد أفرونوس ذلك للسيد أوسون الذي التقيته منذ فترة في بيرا والذي أخبرني بدوره. هل سارت الامور على ما يرام؟

ضحكت وهي تداعب عقداً حول رقبتها لم يكن قد رآه من قبل وقالت: «ألم تفلح؟!» لم يجب. وشعر من تحت الطاولة بقرصة شرسة في فخذه.

- ٨ -

أفاق جونساك صبيحة اليوم التالي قرفاً مشمئزاً وأقدامه واهنة إثر تمضية جزء كبير من ليلته الماضية يتعاطى الخمر والحشيش متنقلاً بين فندق قصر بيرا واستنبول. فقال في نفسه: «لن أرى اليوم مفتي بك أو سليم بك أو أوسون.... أو حتى توفيق. لن أذهب إلى مقهى "أفرونوس" أو أضع قدمي في بار فندق قصر بيرا.

ذلك ما صمم عليه مرات ومرات في السابق وأصبح مثله مثل عربيد أقلع عن الشراب وطلب كأساً في وضح النهار، كان يعود أدراجه إلى شارع بيرا الرئيسي حيث يرافق أي صاحب له ويعود إلى سابق عهده. عاد إلى تعاطي الحشيش (الكيف كما يسميه الاتراك)، إلى السير على غير هدى تقوده الاهواء والصدف. لو كان قد رافق أوسون لكان انتهى به المطاف في الحانة القديمة على سفح (توب - هانة)، أو في الازقة القديمة

بين المساكن الخشبية الفقيرة. هناك، في زاوية ما، يصلون الى قهوة شعبية صغيرة تصطف أمامها مقاعد خشبية تدعوك إلى الجلوس واسناد ظهرك إلى الحائط الساخن ويقدم لك صاحب المكان القهوة والنرجيلة. هناك، يجلس أوسون ساعات وساعات يحدق في تبدُّل النور والظلال على الجدران، يشخص إلى بقعة خضراء رسمتها شجرة تين تبدو وكأن فناناً جسَّدها في لوحة زيتية. أما جونساك فيغرق في تأملاته الجوفاء. لم يقرأ منذ سنوات كتاباً وتوقف عقله عن التفكير، لم يعد يسمع في أذنيه إلاّ تردد أبيات الشعر القديمة التي يلقيها على مسامع أصحابه . هذا الصباح شعر جونساك نفسه ثقيلاً وحزيناً متعباً كدابة مريضة. أولم يسرح في الطرقات الليل بطوله؟

ذهبت نوشي تتناول طعام العشاء مع عمّار باشا فاغتنم جونساك الفرصة وذهب إلى مقهى "أفرونوس". التقى هناك بتوفيق والاخوين عبَّاد، بالنحات واخيه ذي الوجه المغولي. ذهبوا بعد ذلك كعادتهم إلى بيرا وانتهوا عند سليم بك. كان هذا في منزله مع مفتي وآثار الشراب والتحشيش بادية على محياهما. عندما خرج الجميع لاستنشاق الهواء لم يكن لديهم فكرة عن الوقت. كانت قد أغلقت صالات السينما أبوابها. إلتقوا أمام مطعم عبد الله بنوشي وعمّار خارجين فسألوهما: «ماذا تفعلان هنا؟ » أجاباهم «وأنتم، ماذا تفعلون؟»

لم تكن لهم مغامرات مسلية كتلك التي قاموا بها في السابق. فقد سهروا مرة في ملهى «القط الاسود» ومرة أخرى في ملهى «قصر الكريستال» حيث احتسوا الشمبانيا ودفع

ثمنها عمّار باشا. تحدثت نوشي في تلك السهرة مع زبائن المنضدة المجاورة وشكّل الجميع فرقة متكاملة. اقترح أحدهم، وأغلب الظن أنه كان عبّاد، التنزه في المدافن، في مقبرة الايوبيين ووافقه الجميع. لم تكن الفكرة سيئة أو مسلية فقد كانت على انسجام تام مع الجو الذي يعيشونه، مع حالتهم النفسية آنذاك ومع ذلك الوقت الكئيب للمدينة. كانت حالة جونساك النفسية سيئة منذ الصباح أصبح هذا الاقتراح تقليداً بالنسبة لهم فكانوا كلما اصطهج احدهم وشعر بالكآبة ذهبوا به إلى المقابر كي يسرّي عن نفسه في نزهة تحت ضوء القمر بينها.

وصل الجميع إلى المقابر وكل من جونساك ونوشي في سيارة. هناك، سار الجميع في الممرات الضيقة التي تفصل المقابر عن بعضها وهم يقرؤون الشعر بينما كان مفتي بك يقرأ ما كتب على شواهد القبور مومئاً إلى قبور اجداده محدثاً إياهم عن حياة الترف والجاه التي كانوا يعيشونها. لم يخلدوا الى النوم إلا في الخامسة صباحاً وأفاق جونساك من جديد على ألم في رأسه ثم انطلق يجوب الشوارع ماراً بالادارات المختلفة التي كان عليه أن ينجز بعض الاعمال فيها لصالح السفارة.

لقد قالت له نوشي في الليلة الاولى للقائهما إن أصحابه تافهون غير مهمين وهاهي اليوم بحاجة اليهم. فهي تبادر بالحديث معهم على الهاتف وإعطائهم المواعيد والسهر معهم كل ليلة حتى ولو كان عليها أن تمضي الليل بالسير بين المقابر. وليليا...! ألا تحسدهم على الحياة التي يعيشونها؟!

فرك حاجبيه عندما تذكر الفتاة وتهيأ له سماع صوت نوشي قائلة له بالامس: «ألم تفلح بعد؟ لقد ضيعت الفرصة إذن... ستكرهك حتماً... عندما تفعل فتاة ما فعلته لاجلك وتكتفي بتقبيلها قبلة سيئة تجعل المونوكل يسقط عن وجهك... ستكرهك حتماً...»تذكر الآن بُعدَ ليليا عنه في طريق العودة من "ينابيع اوروبا العذبة"... نعم ولكنها وعدته بموافاته وقت الغداء لدى "أفرونوس"

ذهب جونساك لمقابلة المفوض المتواجد دائماً ولكن الحظ شاء أن يكون منشغلاً في اجتماع ضروري. اضطر جونساك إلى الانتظار زهاء ساعة من الزمن متنقلاً بين دهاليز "الولاية". كان الجو خانقاً فازدادت أفكاره تلبداً. لم يكن مثقل الرأس بتأثير الكحول والحشيش فقط إنما كان يسمع الضحكة الرنانة التي أطلقتها نوشي بالأمس عندما قالت له بتهكم: «أرى أنك لم تخني بعد!»وبما جرى بينهما بعد ذلك. إنه مشهدساخر لم يكن يقوى على نسيانه. كانت نوشي نصف عارية تضحك دون حياء وهو يرميها بنظرات شرسة ثم قالت وهي تحلُّ مطاط جواربها: «لا تنظر إلي هكذا! فأنا أقول الحقيقة!» إنقض عليها محاولاً إثبات رجولته واستمرت تضحك ضحكة مجنونة وامتلأت عيناها بالدموع... اهتز نهداها ولكنها أمسكت به بذراعين ممدودتين قائلة: «سنرى إن كنت .....»

استمر في اندفاعه بتمنتٍ محموم ربما لدقيقة ولم يستطع شيئاً حيال هذه الضحكة الفاجرة فتراجع مخفقاً، مشعث الشعر، وعلى ذراعيه آثار أظافر نوشي. ومضى وقت على ذلك

وفي لحظة حَسِبَها مستغرقة في النوم سمعها تقول له: «هكذا يجب التصرّف مع ليليا»

لم لا؟ إن نوشي تتلذذ بإيذائه وتبالغ في إظهار عجزه وعيِّه. كانت له نساء أخريات قبل نوشي وكان يمارس الحب معهن ولا يزال يستطيع ذلك!!! سيمارس الحب مع ليليا ولكن أين؟ في أحضان الطبيعة؟! مستحيل ! قد يفاجئه أحد! وشرع يفكر في التفاصيل العملية لذلك، فمقهى أفرونوس مستبعد لأن الجميع يعرفونه. ماذا لو استأجر مركباً وتجول في البوسفور؟! لا، سيكون هناك بحار معهما!... خطر له استئجار غرفة في نزل ولكنه أبعد فوراً تلك الفكرة من رأسه.

دخل بسرعة مكتب المفوض المسؤول عن الأجانب واستأذنه في اجراء مكالمة هاتفية. أذن له بذلك فاتصل بشقته وأجابته نوشي. سألها قائلاً: «ماذا ستفعلين بعد الظهر؟» فقالت له: «سأذهب مع ستولبرغ لحضور حفلة موسيقية.» سألها: «متى ستخرجين؟» قالت: «خلال ساعة. لن اتناول الطعام وسأكتفي ببعض الحلوى.»

هل لاحظ هذا التركي الذي يسبِّح بسبحته الصفراء تبدلات في قسمات وجهه!! تكلف ابتسامة وقبل سيجارة عرضها هذا عليه ورفض شرب القهوة بأدب. سأله قائلاً« هل أنت سعيد ياسيد جونساك؟»أجابه: «جداً». لم يسأله التركي عن نوشي فالسؤال عن زوجة شخص ما منافٍ للآداب التركية.

جاء من يقول له إن المفوض مستعد لاستقباله فذهب إليه لدقائق ثم اتصل بالسفارة يعلمهم بما ترتب على زيارته فسأله السكرتير: «متى سنراك؟» أجاب: «سأمرّ عصراً» فقال له:

«لقد طلبك سعادة السفير مرتين وقد هتفت إليك مرتين ولم أجدك. ألا تستطيع المجيء الآن؟» أجاب قائلاً: «مستحيل. أرجو أن تقول لصاحب السعادة إنني....» كان السكرتير قد قطع المكالمة فازداد ضيقه وتبرّمه. تضافرت الاسباب التي جعلت منه وهو متجه سيراً على الاقدام نحو سوق السَمك يتلفت حوله بنظرات متطيرة وكأنه يشتمُّ رائحة الخطر. وقد يكون للطقس ايضاً دور في إحساسه بهذا الخطر فمنذ شهر لم تسقط حبّة مطر والهواء جاف يجرِّح الحناجر ويوتر الاعصاب والهواء يثير الغبار في الطرقات.

في الساعة الواحدة تقريباً دخل جونساك إلى مقهى "أفرونوس" وتبين أن ليليا لم تأت وعندما سأل عمّن اتصل به قيل له إن سيدة هتفت وقالت إنها لن تحضر ولكنها تنتظره في الساعة الثانية عند منتصف الجسر الجديد إلى اليسار قرب المراسي. انتقل ذو الوجه المغولي وصحنه إلى حيث كان يجلس جونساك وأخذ يتحدث بالفرنسية التي لا يجيدها رغم أن جونساك يعرف اللغة التركية جيداً تحدث عن تمثال يرمّمه وقال كلمات لا معنى لها تدل على أنه يشرب ويحشش منذ الصباح كما أن صوته مرتعش وتقاسيم وجهه وحشية.

سأل نفسه «لماذا في منتصف الجسر؟» أزعجه ذلك والحقيقة أن كل شيء يزعجه. لم يشعر ابداً بضآلته كما يشعر الآن. نظر إلى عبّاد الجالس أمامه وقال في نفسه: «إنني أكثر ذكاء منه ومن مفتي ومن ستولبرغ وحتى من عمّار باشا؛ إني انسان مطلّع، مثقف أما شكلي...» كان ذا مظهر حسن. لم يكن يعتريه شعور بالنقص إلا في حالات السُكّر والثمالة كباقي

أصحابه ولكن نوشي بتصرفها معه جعلته يشعر به حقاً حتى عندما يكون صاحياً. لِمَ تتدخل فيما لا يعنيها ؟! إنها إنسانة جاهلة، ولدت في نزل سيء السمعة في فيينا ونشأت في المرابع الليلية. أما ليليا فلم تُبدِ ابداً نحوه ذلك الشعور بالاستخفاف منه أو بحاجته إلى حمايتها. يجب أن تأتي معه إلى شقته. اتخذ هذا القرار وشعر لتوه بقدرته وبما يجب أن يقوم به.

دفع جونساك حسابه وغادر المقهى وما يزال النحات يتحدث عن الفن المصري. كان على بعد خمس دقائق من الجسر فأخذ يتجول في الطرقات المزدحمة بالحافلات والحمير والحمالين والشحاذين واحياناً بالسيارات الفخمة. لقد امتزجت حضارتا الشرق والغرب في هذا المظهر الواقعي.

هل كان زواجه من نوشي صالحاً؟ لقد تزوجا زواجاً كهنوتياً كاثوليكياً وآل باستور لا يتبعون المذهب الكاثوليكي. إنهم أغنياء وليليا هي ابنتهم الوحيدة والمنزل الذي يسكنونه على ضفاف البوسفور ممتع جداً في الصيف، وادع وآمن ومتين كان يحسدهم عليه. إن ليليا فتاة شابة تتمتع باستقلالية فردية مطلقة ولكنه تعرّف إلى فتيات أكثر استقلالية منها ما لبثن أن أصبحن خانعات بعد الزواج! قد تصبح مثل أمها ربما أقل أنحناء ولكن أكثر برجوازية!! آه ... لولم يكن عليه كسب عيشه لتطوع للعمل في السفارة وأسبغ عليه لقب ملحق وحصل على جواز سفر دبلوماسي يفتح له جميع الأبواب!!

كان منشغلاً بافكاره إلى درجة لم ير فيها ليليا قادمة. شعر بيد تمسك ذراعه ورآها أمامه تقول: «إني أعتذر. وصل

أصدقاء لنا من جنوى بقاربهم الايطالي واضطررت إلى تناول الفداء معهم. هل وصلتك رسالتي؟» كانت ترتدي ثوباً حريرياً بلون القش وتحمل سترة على ذراعها. تابعت قائلة: «ليس لدي الكثير من الوقت فوالدتي واصدقائي ينتظرونني في محل توكاتليان للحلويات.» ثم نظرت إليه بتمعن وسألته: «ما بك؟» أجابها: «لا شيء.» كم أزعجه وأضناه ذكر محل الحلويات هذا!!؟ أكبر محل حلويات في بيرا، ملتقى الشخصيات الانيقة تجتمع فيه يومياً الساعة الخامسة، أسعاره مرتفعة ولم يدخله قط لوجود السفير الفرنسي فيه في أغلب الاحيان.

سألته ليليا: «أين سنذهب؟» أجابها ووجهه منخفض: «لا أدري!» كان يتحاشى النظر اليها ويشعر بازدياد فضولها فقالت له: «لست أنت رجل الأمس!» أجاب: «حقاً!!» أكان جاداً في تصرفه أم أنه مزيج متلاحم من الجد والأسى!! ذلك لم يمنعه من متابعة ردود أفعال الفتاة التي أضافت: «قلت لي إنك تريد الحديث معي في شيء مهم!!» فقال: «نعم أعرف ذلك ولكنني أتساءل إن كان ذلك ضرورياً!!». عبرا الجسر إلى الطريق المؤدي من جالاتا إلى بيرا عبر النفق فسألته:«ماذا كنت تود أن تقول لي؟» توقف وأشار إلى الطريق المزدحم وقال: «هل يستطيع المرء أن يقرر قدره ومستقبله في الطريق؟» قالت باستغراب: «مستقبل من؟»

لقد عضّت على الطعم! يجب الا يضيق الخناق أكثر من ذلك. سألها فجأة وهو ينظر في عينيها: «هل تثقين بي؟» ترددت لحظة ثم تمتمت: «أجل! طبعاً!» فقال: «إذن! فأنا أطلب إليك الذهاب معي إلى شقتنا، لن يطول الأمر، ساعة فقط.

أرجوكِ لدي الكثير لأقوله لك وسيكون لحديثنا أثر كبير في وجود الآخرين.» فقالت: «ولكن! نوشي!» أجاب بسرعة: «ليس هناك نوشي، لا وجود لها، ليست في الشقة.»ترددت وقالت: «لا أدري....إذا...» فأسرع ليقول: «هل رأيتِ إنك لا تثقين بي!»

تأثرت من معاناته التي أضفى عليها المونوكل وشكله القاسي شيئاً من الاثارة للعواطف فهو عادة يعطي انطباعاً بأنه متشكك لا مبال وهادئ وذلك مالم يكن بادياً عليه اليوم فقالت له: «حسناً! أقبل ذلك». بعدتردد بسيط أشار جونساك لسيارة أجرة يستوقفها ثم وصلا إلى البناء. طلب المصعد وهو يخفي بسمة كانت ستظهر على وجهه. سألته بوجل: «هل أنت متأكد من عدم وجود نوشي؟ لا أريدها أن تظن أني...» أسكتها بقوله: «إنها ليست قادرة حتى على التفكير!»

كان ينتقم، يريد أن يقلل من شأن نوشي التي ما انفكّت كلماتها تضج في اذنيه إذ قالت له: «هكذا يجب أن تتصرف مع ليليا!..» هكذا... ذلك كان التصرف الأكثر سخفاً ووضاعة الذي فعله في حياته: الهجوم المفاجئ الأرعن الذي شنّه على نوشي والذي جعلها تتفجر بتلك الضحكة العصبية الساخرة؟!!!

خرجا من المصعد وتوقفت ليليا. كان تنفسها المتقطع يفضح مدى تأثرها. أخرج جونساك مفتاحاً من جيبه ودفع الباب فقالت: «هل يوجد أحد هنا؟»سُمعت في الداخل حركة خفيفة أطلّت بعدها العبدة الصغيرة برأسها فقال جونساك لصديقته: «ادخلي من هنا لا تخافي.» أزاح جونساك الستارة الخضراء التي تفصل البهو عن غرفة الاستقبال فتوجهت ليليا

إلى الشمس التي تنمر المكان. أما جونساك فقد تنحّى ليعطي خمس ليرات تركية للخادمة قائلاً: «اذهبي وتنزهي لساعتين، هل فهمتِ؟» افترت شفتا الخادمة عن ابتسامة عريضة فشدد قائلاً لها: «لن تعودي قبل ساعتين أليس كذلك؟» رفرفت باهدابها فلم يستطع معها إخفاء بسمة بدت على وجهه. بسمة الظفر! كان بالقرب من ليليا حين فُتح الباب وأُغلق فقالت ليليا: « ماهذا!» أجابها: «لا شيء، لقد ذهبت العبدة للتسوق»

بانت نظرة شك في عيني ليليا وحجبت غمامة أشعة الشمس التي عادت واشرقت ثم اختفت من جديد فقالت الفتاة: « العاصفة! إنها العاصفة!» ظلت واقفة تحاول استجماع قواها ممسكة بحقيبة يدها ثم قالت: « إنه لمنزل جميل! هل اشتريتما بنفسيكما الفرش؟». «نعم»، قال كاذباً إذ لم يكن لديه متسع من الوقت للتوقف عند هذه التفاصيل. فقالت: «والداي لا يحبان المفروشات الحديثة ولو تركت لهما حرية الاختيار لكان منزلنا ممتلئاً بالصمديات واللوحات والرسوم الزيتية ومجلدات البطاقات البريدية» ضحكت ضحكة مصطنعة جاراها فيها جونساك قائلاً: «تفضلي بالجلوس.»

اشار عليها بالجلوس على أريكة من المخمل الأخضر قرب الحائط وأغلق باب الشرفة حيث كان يهب الهواء ويزيح الستائر عنها. التفت فرأى ليليا ممسكة بحقيبة يدها المفتوحة ترسم بقلم الشفاه شفتيها. كان هناك على المنضدة رداء لنوشي كوّمه جونساك بيده وقذف به في ركن الغرفة. عزم على فتح خزانة المشروبات وتقديم كأس من "البورتو" لها ولكنه أحجم عن فعل ذلك. فعل سخيف! شقة عزوبية، مشروب

وبعض الحلوى! فهمت الفتاة ذلك فوراً. سألها: «لماذا كنت باردة معي بالأمس؟» فقالت متصنعة الدهشة: «شعرت بالبرد!». أعادت أحمر الشفاه إلى حقيبتها وألقتها ثم نظرت إلى ساعة يدها المنمنمة. تابع قائلاً: «لقد أمضيت الليل كله أفكر وأراجع ذاتي فيما كنت اريد قوله. والآن لم أعد أعرف ماذا أقول.»وقال في نفسه: «بداية جيدة! هذا جيد!» قالت: «أرجو أن تتذكر!» أجابها: «قد أستطيع ذلك إن أنت ساعدتني»سألته: «وماذا علي أن أفعل؟» قال: «أن تسمحي لي أولاً بالجلوس بجانبك وألاّ تنظري إليَّ.»

جلس بجانبها ووضع يده حول خصرها. خُيِّل إليه انها انكمشت واتخذت لنفسها موقف الدفاع فقال: «لنستعد حديث الأمس حيث قطعناه في مياه أوروبا العذبة"!!!»استدارت ببطء ووضعت يدها على ركبته بحركة هادئة ومباشرة وقالت: «اسمع!» أدرك أن ماينوي القيام به لن يكون سهلاً. وبدأ يفقد ثقته بنفسه فتابعت: «لا أعلم ماذا تظنني... لقد رأيتني تلك الليلة في موقف سخيف ومُشين فأنا غير معتادة كأصحابك على تناول المسكرات ولا على الجو الذي كنا فيه.» أسرع يقول: «إنني في تلك الليلة بالذات....» فقاطعته قائلة: «انتظر لا تكمل! في صباح تلك الليلة انتابني شعور بالخجل دفعني إلى طلب الموت. لم أكتب لسواك لأنك منحتني الثقة في وقت بدت لي الحياة فيه بشعة وقذرة. ذهبت معك البارحة إلى ذلك الينبوع وقبلتني وها أننا اليوم هنا في بيتك حيث يمكن لنوشي أن تدخل في أية لحظة. كل ما أريده منك هو ألاّ تسيء فهمي لأني أضع فيك ثقتي. إنني لا أعلم ما أنت بصدد قوله ولكنني

أنبهك من محاولة التسلية بي. ثق تماماً أنني لن ألومك لو قلت لي الآن لقد أخطأت يا ليليا ويجب أن نذهب...»

اشتد احمرار وجهه. نهض متوجهاً إلى النافذة وألصق جبهته الندية بزجاجها. بقيت ليليا في مكانها تنظر إليه وقد أدار لها ظهره وانتظرت. اعتراه حنق كبير جعل دموعه تتفجر من مآقيه واعتقد سماع صوت نوشي تقول له: «هكذا يجب أن تتصرف مع ليليا!»

كانت قطرات المطر الكبيرة تتساقط على الشرفة ولم تكن الشمس قد احتجبت تماماً كما كانت قرقعة الرعد تدوي من بعيد. سألت ليليا الرجل بصوت يوحي بالخوف: «سنذهب كأصدقاء أليس كذلك؟» ثم وقفت بعصبية. استدار وآثار الدموع على خديه وتمتم: «ليليا!».

نظرت إليه بهلع وقالت هامسة: «أتبكي!!» رسم ابتسامة ضمّنهامشاعر المرارة والاناقة وبهدوء، مسح المونوكل المغشى ببخار الماء واعاده على عينه. أضافت: «لماذا تبكي؟» قال:

ـ هل فكرت يا ليليا بما قلته لي الآن؟

ـ لا أدري! ولكنك على الجسر لم تكن طبيعياً! شعرت بشيء آخر..

ـ والآن؟

ـ لم أعد أدري... لم أقصد إيلامك... يجب أن تفهم وضعي... إني فتاة عذراء وهناك اشياء تخيفني.

ـ ألا تثقين بي؟

ـ أظن ذلك. أظن أني اثق بك.

كانت يداها منقبضتين ربما من الخوف أو من قرقعة

الرعد المزمجرة. هطلت الامطار بغزارة تلطم أرضية الشرفة وترتد في الهواء وانساب الماء من تحت باب الشرفة حتى وصل إلى سجادة غرفة الاستقبال. قال لها: «ألا تعتقدين حقاً بأنني أحبك؟» فقالت: «إن كنت تقول ذلك!» فقال: «وماذا لو اقسمت لك؟ لي رغبة واحدة فقط وهي أن أعيش معك دائماً، أن أتزوجك.» اضطرب هو الآخر من قرقعة الرعد التي كانت تطغى على صوته احياناً وكانت أعصابه مشدودة، وخُيِّل إليه انه يسمع جلبة في البهو. قالت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة هادئة: «هل ذلك ما كنت تريد أن تفصح عنه؟» بقي واقفاً بعيداً عنها، راسماً الحزن على محياه، متخذاً وضعية رجل منهوك القوى فاتر العزيمة فتقدمت منه بضع خطوات ووضعت يدها على كتفه وقالت: «برنار!!»

ترددت في أذنيه كلمات نوشي: «هكذا يجب أن تتصرف مع ليليا ... هكذا ... هكذا ... هكذا». كانت لديه بعض لحظات ليقرر ما سيفعله.

قال جونساك للفتاة: «أما زلت تعتقدين بأني استدرجك إلى شَرَكٍ؟» فقالت: «لم أقل ذلك ابداً!» فقال: «ولكنك فكرت به! اعترفي ! كنت خائفة منذ برهة وشعرت بالندم لقدومك معي!!» دُهش لعمق وحرارة صوته وهو يقول ذلك واستحسن تصرفه ونجاحه. تجنب الاقتراب كثيراً منها وأخذها بين ذراعيه مكتفياً بلمسة رقيقة على شعرها ورقبتها، محاولاً التصرف بكياسة والمحافظة على هدوئه ثم قال لها: «لم أعتبرك لحظة فتاة أتسلّى بها.»

قطع رنين الهاتف المتواصل في الغرفة حديثهما،

فارتعدت ليليا واتكأت إلى الوراء كما لو أن غريباً فاجأها. رفع جونساك سماعة الهاتف وسمع صوتاً يقول: «هل السيد جونساك موجود؟» كان الصوت صوت سيدة اعتادت استعمال الهاتف، سكرتيرة أو ضاربة آلة كاتبة. أجاب: «نعم أنا هو، من المتكلم؟» فقالت: « انتظر لحظة من فضلك، سعادة السفير يريد أن يكلمك.» تعرّقت يدا جونساك وبقي مسمراً في مكانه يحدق في حقيبة يد ليليا الموضوعة على المنضدة. لم يطلبه السفير قطّ على الهاتف أو شخصياً فقد كان ملحقه الخاص أو أحد مستشاريه صلة الوصل بينه وبين جونساك.

إنه يعرف مكتب السفير الفخم على ضفاف البوسفور حيث يتعلق بساط من "الجوبلان" على حائط منه وتفوح في أرجائه رائحة السيجار والعطر الروسي التي تتبع السفير في تجواله. سمع السكرتيرة تقول للسفير بصوت منخفض: «السيد جونساك على الخط» ثم سمع أصواتاً أخرى عميقة وكأنها تكمل حديثاً قد بدأ، ثم اعتذر السفير من أحدهم. لقد توقفت الامطار والنافذة في مكتب السفير مفتوحة لأن جونساك سمع صفارة إحدى البواخر في البوسفور. سمع صوت السفير يقول له: «ألو ! هذا أنت يا جونساك؟» ارتعد كمن أُخذ على حين غرّةوتأكد من أن ليليا لا تنظر إليه وأجاب: «نعم سيدي السفير.» يبدو أن سعادة السفير متعكر المزاج فهو عادة لا يخاطب العاملين بأسمائهم بل يستعمل "عزيزي" أو "صديقي" عندما يكلمهم. قال السفير: «إننا نفتش عنك منذ الصباح، هل تستطيع المرور حالاً إلى السفارة؟» فقال جونساك: «أي... بعد ساعة أو ساعتين؟! إذا سمحت.» التفتت

ليليا اليه وقد كانت تراقب المطر. قال السفير: «هل ماسمعته صحيح؟ هل تكوّن مجموعة مالية وتتباهى بدعم الحكومة الفرنسية لك؟» فقال جونساك مصعوقاً: «أنا؟!!». لم يدرك جونساك ما سمعه على التوّ وبعد لحظة تسمَّر في مكانه مرتعداً، فاقداً توازنه. تابع السفير قائلاً: « الاوساط كلها تتحدث عن ذلك، الأجنبية والتركية، كما لو كانت العملية قد تمت، إنها كاملة حتى اسم النائب والموظف الكبير اللذين تتعامل معهما ....» قال جونساك مرتبكاً: «سأشرح لك فيما بعد يا سيدي!» اجاب السفير: «إذن، فالعملية صحيحة!؟» استطاع جونساك أن يقول: «إنني.... » ولكن السفير قاطعه بخشونة: «تعال إليّ في الحال فقد حان الوقت كي أقصقص لك جناحيك!» اعتراه اليأس كما في الصباح وأخذ يقطع الغرفة جيئة وذهاباً علّه يهدئ من روعه ثم نظر إلى ليليا. وقف أمام الستارة واصبحت نظرته قاسية وحادّة ثم قال متمتماً: «اعذريني! لقد انتهى الامر. كنت بحاجة للتفكير قليلاً.» فقالت له: «هل نذهب؟ على كل حــال عليَّ أن اذهب فــإن والدتي واصــدقائي بانتظاري في محل توكاتليان.» فقال بشئ من الهدوء: «ولكن، ألا تنتظرين انتهاء العاصفة؟! تعالي واجلسي بقربي.» فقالت: «هل تعتقد ذلك؟». أعجبت به، بانفعالاته وقلقه، بحركات يديه الحازمة. قرر أن يصل إلى آخر الشوط وستصبح ليليا عشيقته ولربما بعد ذلك زوجته. يجب أن تكون ملك يديه حالاً إلا فلن يمتلكها ابداً. فرح لغياب نوشي ثم قال للفتاة: «ليليا! أشعر بقلق عارم، أرجوك اقتربي مني بضع دقائق ويزول هذا القلق.» قالت: «ولكن عليك أن تذهب إلى السفارة!»

فقال: «لا شيء يدعو إلى العجلة. قد ينقضي وقت طويل قبل أن نكون وحدنا قريبين هكذا.. لم تجيبي على سؤالي! هل ستحبينني؟» أجابت بخفر: «لا أدري.» ثم جلست بجانبه على حافة الاريكة الخضراء وبدت قلقة، فقد كانت تسترق النظر إلى الباب تريد الذهاب إذ أنها مثله توقعت ما سيجري بينهما.

أحاط جونساك كتفيها بذراعيه وتلامس فخذاهما. لم تُذعن، كانت خائفة ولكنها لم تخرج. نظرت حولها باضطراب بينما يشدها الرجل إليه ويده تنزلق على ذراعها العاري وتتسلل إلى نهديها من فتحة ثوبها وهو يقول هامساً: «أحببتك مذ رأيتك لأول مرة يا ليليا وأنت تعلمين ذلك.» همست خجولة: «دعنا نذهب!»

ما الذي منعها من النهوض والتوجه إلى الباب والفرار إلى الشارع... إلى الهواء المنعش؟ وقع نظرها على حبيبات المطر المنزلقة على زجاج النافذة وكانت عطشى لتلك القطرات اللامعة النقية التي تهطل من السماء توّاقة لأن تبلل جبينها بهذا السيل المنعش. إنها سجينة بين ذراعي رجل، تتحمل قبلاته دون التجرؤ على الاحتجاج، على العتاب أو الثورة كمن يعيش مستسلماً لقدره. قال لها: «هل تظنين أن أباك سيوافق؟» فقالت بخنوع: «لا أدري.» بدت وكأنها في عالم آخر تصاب أحياناً بقشعريرة خفيفة لا تسمح لها بالخلاص من ذلك العناق المحموم الذي قطع أنفاسها. قال لها: «أنت جميلة يا ليليا» وأخذ يتفوه بعبارات لا معنى لها محافظاً على هدوئه ودمه البارد فليس عليه أن يسرّع في مجريات الامور والجولة لم تنته بعد.

لم تكن لديه رغبة جسدية إذ أنه ليس متيماً أو شهواني الطباع. أخذ يداعب جسد ليليا وفي نفسه غاية محددة لمعت عيناه لذكرها وشعر بأنه على وشك الانتصار. «أتركني!» قالت بتمنّع بسيط واختفى صفاء عينيها ثم اضافت بصوت منخفض «لماذا يا برنار» نعم لماذا؟؟! أجابها بقوة: «لأني أريدك أن تكوني لي. بعد أن ننتهي وتذهبين يجب أن أشعر بوجود رباط متين بيننا، أتفهمين يا ليليا؟!... لا ... لا تبعديني... إننا نقامر في هذه اللحظة بوجودنا. أطبقت جفنيها على عيون متكسرة حزينة... أما هو فكان يستجمع أشتات أفكار وصور مبهمة... السفير وأدبه المفرط! نوشي التي سترمي بقبعتها في الهواء عند عودتها! طاولته المعتادة في مقهى "أفرونوس" مركب ليليا الأصفر! ذقن والدها....

شعر وللمرة الثانية بحركة في البهو وظن أنها العبدة التي قد تكون رجعت فهي فضولية بطبعها فقد رآها تتلصص عليه وعلى نوشي مختبئة وراء الستارة!

تابع سحق شفتيه على شفتي الفتاة، لم يكن يرى شيئاً ولكنه كان يسمع بوضوح ضربات المطر على أرضية الشرفة ويتصور انسياب قطراته على الزجاج. أطلقت ليليا صوتاً كالعرير المخنوق وشفتاها ما زالتا ملتصقتين بشفتيه، انثنى بها إلى الوراء. حاولت للحظة التملّص بجسدها وفتحت عينيها مرتين تحمل فيهما كل معاني الخوف والتضرع والاستسلام ثم تقبضت قسمات وجهها بعنف. توقف جونساك عن الحركة في قمة انتصاره وسقطت حبة عرق على جبينه.

بكت ليليا بصمت. كان وجهها شاحباً، جبينها متجعداً

وعيناهاغائرتين تفصحان عن ألم دفين. سالت دمعة من مقلتيها واستقرت على حافة أنفها. لم تفكر بستر أجزاء جسدها العاري أو إخفاء وجهها. استقرت إحدى يديها على صدرها الذي يكشف نهداً عارياً، أما اليد الاخرى فقد كانت باصابعها المنفرجة ملقاة على الاريكة المخملية.

وقف جونساك بجبين متجعد ونظر إلى المرآة نظرة خاطفة ثم أصلح ربطة عنقه وقال: «ليليا! لماذا تبكين؟ أنا أحبك.» قال ذلك بشكل آليّ، أرادها أن تنصرف ويبقى وحيداً كي يفكر قليلاً بقصة السفارة المزعجة التي تقلقه. أضاف قائلاً: «هل تريدين أن أفتح النافذة؟» أراد أن يدخل حياة الشارع إلى الغرفة كي لا يظلا وحدهما. كاد أن يشعل سيجارة ولكنه أعاد العلبة إلى جيبه وتابع: «ليليتي الصغيرة، لا تحقدي عليّ فنحن الآن لبعضنا و...» سكت متسمراً في مكانه عاجزاً عن النطق بحرف واحد. رأى نوشي في الطرف الآخر للغرفة تقف أمام الستارة الخضراء، تضحك عيناها ضحكة متوترة واضحة على رأس أنفها المستَدِقّ وتنظر إلى جونساك نظرة ثاقبة جعلته يحني رأسه.

لم تتحرك. ربما كانت هنا منذ مدة في المكان ذاته. هبت نسيمات هواء وتغلغلت بين الستائر وحركتها. انتزع الصمت ليليا من معاناتها وتحيرت من وجود يدها على نهدها فحركتها ثم فتحت عينيها وبقيت لحظة تتأمل السقف. لقد شعرت بشيء غريب في الغرفة فانتصبت واقفة. نظرت إلى جونساك واكتشفت وجود نوشي. أطلقت صيحة مخيفة، صيحة لم يسمع جونساك مثلها من قبل. قالت لها نوشي: «لا تهتمّي لوجودي»

وتقدمت من المنضدة ووضعت حقيبة يدها إلى جانب حقيبة ليليا. كانت ترتدي ثياب الخروج وقبعتها على رأسها. ألقت بقبعتها عن رأسها كما تفعل أي سيدة تعود إلى منزلها ثم نظرت إلى المرآة وتابعت قائلة: « إنني هنا منذ ربع ساعة تقريباً ولم أرد أن أقطع عليكما لذتكما!»

تذكر جونساك فجأة ما روته له نوشي عن أمسيات الشتاء في فْيينا حين كانت شقيقتها تلحق بالرجال وراء الأكشاك الخشبية وكانت هي تراقب ما يحدث آنذاك، واليوم راقبت نوشي ما حدث بينه وبين ليليا. قطعت نوشي عليه أفكاره بقولها: «أظن أنكما تشربان الشاي الآن؟!» . لم يجرؤ جونساك على النظر إلى ليليا ولكنها كانت ضمن مجال بصره متسمرة أمام حاجب النافذة. لم يستطع سبر أفكارها أو يقدِّر ما قد تفعله. كان ثوبها مدعوكاً وشعرها المرفوع قد تدلى على رقبتها وظهرها. قالت نوشي: «هل أرسلت الخادمة لشراء الحلويات؟» سُمعت ضجة غريبة. لم تكن بكاء أو حشرجة. إنه صوت منطلق من أعماق الحنجرة، من أسفل الصدر. انعتقت في اللحظة ذاتها ليليا من جمودها وهرعت إلى الشرفة. تعلقت بالحافة الخارجية للشرفة فصرخ جونساك مهرولاً في ذلك الاتجاه «ليليا!!». قد يكون صراخه واندفاعه نحو الشرفة سببا في عزم ليليا على السقوط! اعتراها الرعب مثلها مثل فريسة مُلاحَقَة. قفزت بسرعة خاطفة وهوت إلى الأسفل.

شُلَّت حركة جونساك حيث كان. وضع رأسه بين يديه وأخذ يعضّ على قبضة يده ويركل الارض بقدميه. لم يسمع صوت ارتطام جسد ليليا على الرصيف ولكنه سمع صفارة

الشـرطة المـتـقطعـة الصـادرة عن زاوية الشـارع ووقـع خطوات مسـرعة. صـاح بنوشي قـائلاً: « انظري ... انظري بسـرعـة!». لم يجـرؤ على الاقـتـراب ولا يريد رؤية أي شـيء. شـعـر بأنه سيجن رعباً. توجهت نوشي إلى الشرفة ببطء وأطلت ثم قالت بصوت مجـرد من أي تعبيـر: «علينا أن ننزل فالجميع حولها والبعض ينظر نحو الأعلى.» تناولت قبعتها بحركة بطيئة خاملة ووضعتها على رأسها ثم توجهت نحو البـاب وهي تقـول: «إنني ذاهبة.» كانت تعلم أنه لن ينزل. تركها تمضي ثم هرول وراءها وكـانت في الطـابق الاسـفل صـارخـاً: «إن والدتهـا تنتظـرهـا في محل توكاتليان!». أوصد البـاب على نفسـه بالمفتاح كمن كـان يخشى شيئاً أو أن أحداً يتعقبه ورن جرس الهـاتف فجأة. أتاه صـوت السكرتيـرة من الطرف الآخر قـائلاً: «سـيخـرج سـعـادة السفير في تمام الخامسة ويطلب اليك المثول فوراً بين يديه!»

أراد البكاء فلم يستطع. تلوّن وجـهه بتـعـابيـر شتّى وأخـذ يدور في كل اتجاه محدثاً ضجة تطغي على الضجيج الصـادر من الشـارع. كـيف لـه رؤية جـريح وهو يـخـاف النظر إلى كلب مدهوس في الشارع!! هرع جونساك إلى غرفة الحمام ليتقيأ.

مضت على الواقـعـة عـشـر دقـائق ربمـا ربع سـاعـة سـمع خـلالها صفارة إنذار سيارة إسعاف. هل نقلت ليليا أم أنها ما زالت في الأسفل؟! اقترب من الشـرفة وأطل أخيراً برأسـه. رأى في الأسفل بعض الفضوليين ولكن ليليا كانت قد نُقلت ونوشي لم تكن هناك. أخذ قـبعتـه الرمـادية واتجه نحـو المـصـعد ثم توجـه بعد تـردد نحـو سلّم الحـريق تفـادياً للمـرور في مـكان الحـادثة قـائلاً لنفسـه: «سـيـأتي رجال الشرطة وسـيـقـرعـون

الباب...» تصرّف كالهارب الذي يشعر بالذنب ومع ذلك فقد استقل سيارة أجرة مكشوفة لم يجد غيرها توجهت به نحو السفارة؛ عليه الامتثال لأوامر السفير! حدّث نفسه قائلاً: «لقد انتحرت قبل الآن وسيثبت التحقيق ذلك!» ارتاح قليلاً لهذه الفكرة وهدأ في مقعده ينظر حوله فرأى في طريقه أشخاصاً يشربون القهوة ويتناولون البوظة في المقاهي كما لمح مفتي بك الذي لم يكن قد سمع بالحادثة وحياه. كان المطر يتساقط خفيفاً يتخلله أحياناً انفراج لأشعة الشمس المائلة. كاد السائق أن يرتطم بحافلة فصرخ به جونساك قائلاً: «هل أنت مجنون! خفف سرعتك وإلا....»

هل كان جسد ليليا على الرصيف عندما وصلت نوشي إلى الى الشارع!!؟ لقد سُئلت حتماً. هل قالت شيئاً؟ طرد هذه الأفكار من رأسه وبدأ يستعد للمقابلة التي سيجريها مع السفير. فكرّ بما سيقوله، سيقول له: «سيدي السفير... لقد أسيء استعمال اسمي وأقسم بشرفي أن لا علم لي بشيء مما سمعته!» كلا! لا يمكنه قول ذلك!! من المؤكد انه لا يعرف الشيء الكثير عن قضية مضمار السباق هذه ولكن زوجته دبرت ذلك، زوجته الشرعية!! هل كانت السفارة تعرف أمر هذا الزواج أيضاً!! قد يكون من الافضل له أن يسرد للسفير ما حدث مع ليليا! سيقول له: «أستميحك عذراً سيدي... فقد جرت أمامي حادثة مخيفة...» ثم يسهّل السفير الامور والشكليات ويسأله عن سبب انتحار ليليا....

أخذ جونساك بالبحث لنفسه عن أعذار فقد جاءت إليه ليليا وهي تعلم ما سيجري لها! لقد لحقت به. لم يكن كاذباً

عندما وعدها بالزواج فقد كان محتملاً أن يتزوجها! «إنها حقاً لشخصية غريبة الأطوار». لم تكن تزعجه حادثة الانتحار البشعة بقدر ماكانت تزعجه صورة ليليا بعينيها المغمضتين وأجفانها المنقبضة وجبينها المشدود قبل أن... لم يستطع تحليل شعوره أو تعابير وجهها في تلك اللحظة... ذكره ذلك بتماثيل لعذارى غوطية يتأملها المرء ساعات وساعات عاجزاً عن سبر مكنونات أعماقها.

لقد فعلت الأقدار فعلها... نعم... ارتاح لهذا التحليل. «كان بإمكانها أن ترفض ولم أكن لأغتصبها عنوة». توقف هطول المطر ولم يبق منه سوى بقايا ماء موحلة على جانبي الطريق المؤدية إلى تيرابيا. هل كانت ليليا لتتمكن من أن تفلت من مصيرها؟! قبلت به طمعاً بالزواج لا عن رغبة جنسية... احمر خجلاً من تلطيخ سمعة انسانة ميتة. هل فارقت الحياة؟ قد يقع المرء من عل دون أن يموت! سأتصل بالشرطة من السفارة... من الأفضلً أن أجد نوشي فهي تعرف التفاصيل! نعم ... يجب عليه الاتصال بنوشي قبل التفوه بأي حرف فقد تتعارض إفادته مع تلك التي أعطتها!... كيف لها بالله أن تستطيع الحفاظ على هدوئها هكذا!!؟ لم تعد تؤلمه أو تثيره هذه الصور والافكار.....

لمح سيارة السفير أمام باب السفارة فدخل فوراً إلى جناحه. طلب إليه الحاجب ذو السلسلة الفضية الانتظار. كانت رائحة الفليون والعطر الروسي تعبق حتى في غرفة انتظار السفير ذات الأرائك المخملية الحمراء. سمع تردد أصوات وراء الباب المبطن بالمخمل ،ودقات عقارب ساعة حائط

مصنوعة من المرمر الابيض. انتاب جونساك قلق قاتل، إنه لا يستطيع الانتظار وغير قادر على الذهاب. لو أنه طلب من سائق السيارةالانتظار لاندفع إلى الخارج مهرولاً!! مازال النقاش دائراً وراء الباب وكأن شيئاً لم يحدث! تأوه بصوت منخفض قائلاً: «هذا لا يُحتمل». أحس بألم في جسمه وأخذت ركبتاه ترتجفان فقال في نفسه « ... خلال ثلاث دقائق إذا...» مرت الدقائق الثلاث وتلتها ثلاث أخر! لم يعد يعلم أين يذهب. رأى من فتحة باب الردهة الحاجب يقرأ جريدة فرنسية، قابعاً وراء مكتب صغير متأهباً للتخلص منها في أية لحظة. «لقد أخبر والداها حتماً!» مجرد التفكير في ذلك جعله يرتعد خوفاً. تباً للسفارة....! رأى السفير يودع شخصاً عند الباب بلطف في اللحظة التي كان ينحني ليأخذ قبعته وينصرف، بادره السفير بصوت أجش: «هذا أنت!! ادخل.» وأغلق الباب عليهما محدثاً صريراً خفيفاً.

- ٩ -

كان السفير مضطرباً كاضطراب جونساك عندما ودَّعه إلى الباب. مد له يده مصافحاً بحركة تنم عن الكثير من المعاني قائلاً له: «عد إلينا غداً كعادتك!». دامت المقابلة نصف ساعة طلب خلالها من السكرتيرة البقاء في الخارج وكان الحاجب يسترق السمع من وراء الباب. لقد قال له السفير في سياق الحديث: «هل تدّعي حقاً بعدم انخراطك في هذا المجتمع الذي يستند إلى....»لم ينفعل جونساك رغم خطورة الحديث الذي جرى بينه وبين السفير فقد كان يتساءل كيف الوصول إلى نوشي، كيف السبيل إلى لقائها أولاً قبل عودته إلى الشقة حيث ستكون الشرطة في انتظاره حتماً. فكر أنه لو كانت ليليا قد فارقت الحياة فستُنقل إما إلى منزل والديها أو إلى المشفى وقد تكون نوشي قد لحقت بهما! كان مأخوذاً بأفكاره لدرجة لم يتابع معها ما كان السفير يقوله

بصوت عال، كان يؤنبه ويلومه على تصرفه الذي أفقد ثقة السفير به ويحدثه بفظاظة وصلف. اكتفى جونساك بهز رأسه المثقل بالافكار. فرغ صبر السفير وفقد هدوءه فانبرى قائلاً له: «تناهى إلى سمعي انك تسكن في شقة جديدة فخمة وأنك لا تسكنها وحدك!!» قال جونساك نعم بايماءة من رأسه وبدأ يخمّن ما قد يحدث له.

كانت له مقابلة مماثلة مع المسؤول عن الانضباط في ثانوية ستانيسلاس حيث نشأ. كان في الخامسة عشرة من عمره، كان قد لحق ذات شتاء فتاة هوى تتسكع في الطرقات إلى شقة مفروشة في شارع سيباستوبول حيث رآه احدهم. تذكر الآن ما قاله له المسؤول حينذاك، لقد قال: «لقد أسأت إلى سمعة المدرسة وسمعتك شخصياً يا سيد جونساك!»

خفف السفير من حدّته وتابع قائلاً لجونساك: « إنك تعلم أن المجتمع في استنبول يهتم ويتدخل في حياة كل فرد فيه وأملي ألا تطال الثرثرة أحداً من العاملين لصالح السفارة، أما أنت.... فالنوادر التي تسري حولك....» انتظر السفير ردة فعل عنيفة وهجومية من محدثه ولكنه صدم بابتسامة باهتة تظهر على وجهه فازداد حنقاً من جديد وتابع قائلاً: «وكأنك لا تدرك ما أقوله لك!! المرأة التي تساكنها راقصة أليس كذلك؟... إنها ترافق في الليل والنهار شخصيات مبتذلة تعيش على هواها وأنت، أنت تحذو حذوها... ويردد الناس أنك....» برقت عينا جونساك فقد توقع هذا الموقف فأجاب بهدوء أدهشه: «أعيش على نفقتها!» أشاح السفير بوجهه فأضاف جونساك: «أظنك ستطلب استقالتي!!» قال السفير: «كلا! أريدك فقط أن تشرح

لي الوضع ولا أحب تأجيل البحث فيه... فأنا آذان صاغية.»
كان صدر جونساك مثقلاً بأحداث اليوم وأراد جاهداً التخلص من هذا العبء فقال للسفير: «سيدي السفير، لست قادراً على قول أي شيء اليوم وأنا مستعد لتقديم استقالتي.»

من المؤكد أن ليليا ترقد الآن في سرير في المشفى إن لم تكن قد قضت نحبها. تعجب جونساك من عدم اتصال الشرطة بالسفارة للسؤال عنه، أخذ يتوقع رنين جرس هاتف السفير في كل لحظة ولكن ذلك لم يحدث فقد سمع السفير يقول له: «إنني لا أفهم وضعك إطلاقاً وأصر على تفسير منك لهذا الوضع.» ثم وقف فأسرع جونساك إلى الخروج مرتطماً بإطار الباب بعد أن صافح اليد التي امتدت له مشجعة ومودعة. اجتاز البهو ونزل السلم منطلقاً بأقصى سرعة باتجاه فندق تيرابيا ليستقل سيارة ويفتش عن نوشي ولكنه وقف أمام سيارة انفتح بابها ورأى نوشي صامتة بداخلها. أشارت له بالصعود إلى جانبها. كانت شاحبة قاسية الملامح، قسوة لم يعهدها فيها من قبل، رتيبة الحركة وبطيئة. شعر جونساك في ظلمة السيارة بالاختناق وراوده شعور بأنه قد قُبض عليه وسيق إلى السجن. تمكن بشفتين جافتين من سؤال نوشي إن كانت ليليا قد قضت فأجابت بالنفي. غمرت عينيها القسوة من جديد وأشاحت بوجهها متنهدة من ذلك المنظر الأليم الذي شاهدته ثم قالت: «نقلوها إلى مشفى قريب.» تحركت المركبة متمهلة بانتظار الايعاز بالتوجه إلى عنوان. انتبهت نوشي لذلك أنزلت الزجاج الفاصل بينهما وبين السائق وذكرت له عنوان مفتي بك. لاحظت التساؤل في نظرات جونساك فقالت له: «لقد

ذهبت برفقة مفتش الشرطة إلى محل توكاتليان، كان الجميع هناك حتى أبوها». لم يرغب جونساك بتصور الموقف هناك حيث كانت تعزف فرقة الحجرة. تابعت قائلة: «اندفعت النساء متجهات إلى المشفى وأخذ الأب يسأل المفتش أسئلة متتابعة... وقفتُ متنحيّة أرقب مجريات الأمر.»

سألها جونساك: «وماذا قال الأب؟»اجابت: «لا أدري... لم يسمحوا لي بدخول المشفى.... اضطررت بعدها للذهاب إلى مركز الشرطة وشرحت لهم ما جرى...»

كانت متعبة تتكلم بصوت واهن محتفظة بوعيها ورباطة جأشها فقد نبهت السائق إلى طريق سلكه عن خطأ. استطردت تقول لجونساك: « ... كانت الشرطة ستأتي بك من السفارة ولكنني طلبت منهم الانتظار إلى الغد.»توغلت السيارة عبر المدينة المزدحمة فوضعت نوشي يدها على ذراع جونساك وقالت: «خذ حذرك! ... نبهني المفتش إلى أن أباها يهدد بقتلك!» إذن هذا ما دعاها للتوجه إلى منزل مفتي بك!! وتابعت: «اتصلتُ بالصحفي توفيق فهو يستطيع جمع المعلومات كافة ويعرف أين يجدنا.»

شاع الخبر في المدينة. أخذ زبائن العشاء في مقهى "أفرونوس" يتنادون من طاولة إلى أخرى مشيرين إلى مكان جونساك الفارغ وأخذ السيد أفرونوس نفسه يسرد قصة الفتاة الشابة التي جاءت مساء أمس وتناولت القهوة مع جونساك ووصفها لهم. اما أصحابه فقد علموا بالامر خلال طوافهم في شوارع بيرا. قالت نوشي لجونساك: «إن مفتي بك غائب عن داره وأنا أعلم أين يضع مفتاحه.» ذكره ما قالته كلمات السفير

حول علاقته بها ... هاهي تدفع أجرة السيارة وتدخل البناء وتأخذ المفتاح من مخبئه... أما هو ... صديق العمر.. لم يكن يدري من ذلك شيئاً. هبط الاثنان بضعة درجات ودخلا إلى الشقة المعتمة فأدارت نوشي مفتاح النور وهي تقول: « عليَّ أن أتصل بعمّار باشا .» كانت هناك على المنضدة بقية طعام وعلى الاريكة ثياب متسخة قذفتها نوشي في خزانة. لاحظ جونساك زجاجة راكي (عرق) فسكب منها كأساً ازدرده دفعة واحدة. هتفت نوشي لعمار بك وقالت: «هذا أنت ... نعم ... أنا في منزل مفتي بك... يجب أن تأتي باسرع ما يمكن... ماذا تقول؟... أرجوك... أصرف مدعويك فالأمر مهم جداً ... ستفهم فيما بعد حين تقرأ جريدة المساء...» كان توفيق بك قد أخبرها أن النبأ سينشر في جريدة المساء. أعادت نوشي السماعة إلى مكانها وجلست على الاريكة متعبة وتنهدت قائلة: «لم أكن أتصور أنها قادرة على فعل ذلك!» إنها المرة الاولى التي تتحدث بها نوشي عن المأساة وأسبابها وتابعت: «لقد تأخر توفيق بك مع أنه يعلم أننا ننتظره هنا!» لاحظت نظرات جونساك متجهة إلى زجاجة الكحول فقالت له: « لا تسرف في الشراب، عليك أن تأكل شيئاً!» توجهت إلى خزانة وجدت فيها قطعةً من السمك المدخن وشيئاً من الخبز وقالت بتأفف: «ماذا يفعلون!! عمار باشا منشغل بمدعويه وسيأتي حالما يستطيع التخلص منهم وأغلب الظن أن قتاش باشا معهم كذلك... هل قابلت السفير؟» أجاب بالنفي فقالت: «ذلك أفضل!»

كانا متوترين يرتعدان من أقلّ ضجة، خاصة تلك التي تحدث عند ارتطام المصعد متوقفاً في القبو وراء الخزانة،

ينظران من النافــذة المطلة على الرصـيف إلى أقـدام تمـر أمامهما آملين أن تكون أقدام أصحابهما. قالت نوشي: «شحب وجهـه... لم يبكِ.. لم يأت بحركة...» عـرف جونساك أنهـا تتحدث عن والد ليليا، ذلك الانسـان القلق والمضطرب الذي قدم له "البورتو" وراقبه خلسة لدى زيارته لهم، قد يكون شعر بشيء حياله آنذاك! لم يجرؤ على سؤال ابنته حينذاك عن علاقتهما وهاهو بعد أسابيع يكتشف انه عشيقها... تابعت نوشي قـائلة: «كم هم خطرون الرجـال الذين على شاكلتـه! فبقدر ماهم هادئون بقدر ما يصبحون شرسين عندما....»

نهض جوسـاك متشنجاً فقـالت له: «كُل شيئـاً!» لم يعد يستطيع الأكل أو البقاء هنا منتظراً!. فُتح الباب ودخل الالباني متجهماً واغلق البـاب وراءه وكأنه يخشى دخول أحد غـريب عليهم ثم قـال بصوت منخفض: «لقـد قـابلت توفيق للتّو!»... وكأن النور باحتجاجه قد ارتدى الحِداد فغدت الشقة مظلمة ظلام بيوت الاموات!... تابع الالباني «ولن يأتي قبل منتصف الليل فمديره متوعك وعليه البقاء في المكتب.» كان الزوجان ينظران إليه بانتظار المزيد من الأخبار ولكنه سكت عن الكلام فبادره جونساك:« هل ماتت!» أجابته نوشي: «سيتمكنون من إنقـاذها!» فعقب الالباني قـائلاً: «نعم أظن ذلك ... أصيبت بكسور في عظم الحوض وقد أبرق والدها إلى فيينا مستدعياً جراحاً مشهوراً... سيصل غداً بالطائرة.»

مسح جـونسـاك عرقه بمنديله وصب لنفسه قدحاً من الراكي غير مكترث بنظرة نوشي فحذا الالباني حذوه. تمتمت نوشي: «أتمنى أن يعود مفتي...!». نهض الالبـاني كعـادته

فأشعل سخان الغاز في المطبخ وفتح الصنبور ونظف المنضدة ووضع فوقها غطاء. سألته بصوت عال: «هل عادت إلى وعيها ... هل تكلمت؟»أجابها من المطبخ: «لا أدري فلم يخبرني توفيق بذلك.» اقتربت من الهاتف واتصلت بدار النشر التي يعمل بها توفيق وطلبت الحديث إليه. انتظرت قليلاً ثم سمعت صوت توفيق يتحدث إلى مراسله في جنيف ولما أنهى حديثه قالت له: «توفيق؟ كلا ... أريد فقط أن أعرف، هل استطاعت الادلاء بإفادتها ... اسمع يا صغيري.. اسأل عن ذلك فوراً وأخبرني بسرعة... نعم، سنمضي الليلة هنا.»لم يُعِرْ جونساك سؤالها اهتماماً ولكنه انتبه حين قالت: «قال المفتش الذي أخذ إفادتي إنه توجد معضلة في التحقيق: فليس هناك من شهود...» وبتعبير آخر فإن نوشي لم تقل الحقيقة في إفادتها وسوف يؤكد جونساك ما قالته عندما يدلي بإفادته غداً. إذن، لا شيء يثبت انهما استدرجاها إلى شرك أو أن جونساك اغتصبها.

أثقلت هذه الفكرة كاهله جداًوتذكر ما حدث معه في العام الماضي: كان في أثينا وانطلقت حينذاك فضيحة اخلاقية هزت مجتمع أثينا بكامله؛ رُوي أن ملاّكاً ثرياً كان يستدرج إلى ممتلكاته فتيات صغيرات يختفين بعد ذلك. ذُكرت حول هذه الفضيحة قصص مروعة ودموية أثارت الغثيان في نفسه. كان صاحب الفضيحة رجلاً مثل كل الرجال يشبه جونساك بعض الشيء ويضع مونوكلاً على عينه؛ وفي أول يوم لاعتقاله وجد منتحراً شنقاً مستعملاً شيالات قميصه. انكبّ جونساك على الشراب بنهم وبدون وعي منه لإحساسه المفاجئ بالاختناق.

قال الألباني لدى سماعه وقع أقدام على الرصيف: «جاء مفتي!» دخل مفتي ساكتاً متجهماً وكأنه يدخل معبداً وقال: «ألم يأت سليم بك؟» أجيب: «لم يصل بعد.»فقال: «لقد اتصل بي وقال إنه سيأتي. مساء الخير يا نوشي.» قبلها على جبينها كالعادة ثم جلس والتفت إلى جونساك وتنهد قائلاً: «هل من جديد؟» قيل له: «إننا ننتظر اخباراً من توفيق.» لم تصل الأخبار إلا بعد ساعة من الزمن؛ فقد استعادت ليليا وعيها إذ أنهم حقنوها بمادة "النوفوكايين" ليخففوا من ألمها كما وصل الجراح النمساوي بالطائرة.

جاء سليم بك وبدأ تعاطي المسكرات، يفرغون زجاجة ليبتاعوا أخرى. صمت الجميع فيما كان سليم بك يتلمظ ببعض السمك المدخّن ثم قال فجأة لنوشي: «كان عليك أن تختبئي!» قطبت حاجبيها وتوثّب أنفها. قالت بحدة: «كان عليها أن تفعل ذلك في مكان آخر غير منزلي!!» لم يحرّك جونساك ساكناً وشعر رغم الكابوس الذي يضنيه الآن بأن نوشي تغار عليه. تابعت نوشي قائلة: «إن لم يستطع عمّار باشا تسوية الامور فسيكون هناك تحقيق لا محالة...!» أخذ جونساك يفكر بوحش أثينا من جديد فقد انقلبت أكثر الامور بساطة ضده في التحقيق. كان هو أيضاً يدخن الحشيش فقدمه الاتهام على أنه يتعاطى المخدرات.

في الساعة الحادية عشرة ليلاً توقفت سيارة أمام الباب ودخل عمّار باشا مضطرباً. صافح نوشي دون أن ينظر إلى جونساك قائلاً: «اتصلت بوزارة الداخلية ولم أجد احداً هناك، يبدو أنهم مدعوون إلى حفلة يقيمها الغازي.» فأخبر بقرب

وصول توفيق ومعه الأخبار. اضطجع البعض على أرائك ضيقة وافترش البعض الآخر الأرض واجمين ينتظرون خبراً جديداً ويعاقرون الشراب. جاء أحد العبادين، ذو الوجه المغولي، وانضم إلى الموجودين. كان مشوش الذهن، اختار ركناً من الغرفة وقبع فيه صامتاً يشرب ويشرب حتى تورمت عيناه. قال عمّار: «لن أستطيع البقاء وقتاً أطول!» تذكر جونسالك موضوع مضمار الخيل ولم تكن لديه الشجاعة الكافية لطَرقه؛ كان في حالة خَدَرٍ ولم يكن يسمع مقاطع كلمات تقال في الغرفة.

- يجب أن نعرف ما إذا كانت عائلة باستور قد تقدمت بشكوى...

- إن ليليا بالغة! إنها تجاوزت سن الرشد.....

- لقد برهنت على ذلك حين تعرفت على ستولبرغ....

- حقاً! أين ستولبرغ؟!...

- سيأتي عند زوال الخطر.....

هيأ الألباني غليوناً أخذه احدهم فامتلأت الغرفة برائحة الحشيش الجافة. كاد جونسالك أن يفقد وعيه فقد اختلطت عليه الصور والكلمات وأضحت أفكاره ركام أحاسيس شتّى وذكريات متفرقة «كسر في الحوض! هل هذا خطير؟».

رفع الجميع رأسهم عند سماع وقع خطى توفيق القادم بعد عمل طويل. كان وجهه أكثر صفاء من الآخرين، جاء بهواءنقي من الخارج عند دخوله من الباب. قال مبشراً: «كل شيء على ما يرام! أين ستولبرغ؟» سُئِل: «ما وراءك من أنباء حسنة؟!» فقال: «زارني في الدار أحد أقرباء العائلة وكان قد

مرّ على جميع دور النشر الاخرى يطلب عدم ذكر الموضوع بعد الآن في الصحف وذلك معناه أن أهل الفتاة لن يتقدموا بشكوى وقبلت الشرطة السكوت على الوضوع.» فقال عمار باشا: «حسناً، في هذه الحال أنا مضطر للذهاب، يلزمني بعض الوقت لإبدال ملابسي والانضمام إلى حفلة الغازي» خرج بسرعة وكان سليم بك ينظر إليه ساخراً ويقول: «اثنان!!» سُئل : «ماذا، اثنان..» فقال: «لقد تخلّى عنا اثنان من أصحابنا! ثانيهما ستولبرغ الذي لم يأت بعد.» اتصل ستولبرغ هاتفياً وعندما علم بزوال الخطر وصل إليهم خلال عشر دقائق فسأله أحدهم: «كيف وصلت بهذه السرعة؟» أجاب: «كنت في مطعم ريجانس القريب من هنا،كنت دائماً أعتقد أن الأمور ستنتهي بشكل جيد! إنها حديث الشارع.»

لم يعد جونساك يسمع بوضوح أو ينتبه إلى حركتهم أو يسأل عن ذلك. نام أربعة منهم في شقة مفتي بك: صاحب الدار وخادمه الالباني، نوشي وجونساك، وفي الصباح حين استيقظ هذا في اليوم التالي كانت الساعة العاشرة والألباني قد ذهب للتسوق، أما مفتي بك ونوشي فما زالا نائمين.

ـ ١٠ ـ

أقبل الصيف، موسم العطلة والعمل الراكد، فصل الاسترخاء والسفر. أراد السفير أن يواصل جونساك عمله لصالح السفارة فقد كان عسيراً أن يجد رجلاً فرنسي الجنسية ذا مركز إجتماعي مرموق، متواضعاً حتى في طموحاته وذا معرفة جيدة باللغة والحياة التركية لذلك استدعاه وقال له: «إنه من الأفضل على الأقل أن تأخذ عطلة لشهرين ولكنني من الآن فصاعداً أعتمد عليك في أن تتحاشى الاحداث المزعجة والمؤلمة.»اضف إلى ذلك أن السفير شاهدجونساك ولمرة واحدة دون المونوكل وكان يشيح بوجهه ويتورم جفناه لمجرد ذكر نوشي أمامه.

ذهب مفتي بك إلى اليونان وبقي هناك بضعة أسابيع يتابع دعوى قضائية رفعت منذ عشر سنوات حول استملاك أراض كانت تعود لعائلته في فترة ما قبل الحرب ولم يكن يأمل استرجاعها.

اعتبر سليم بك إقامته في أنقرة إجازة صيف مع أنه كان يتنقل في المكاتب الحكومية سعياً للحصول على مركز مهم له في الخارج ولكنه لم يحصل عليه.

اختفى أوسون من تركيا ولم يسمع أحدعن اخباره إلا في الخريف وقيل حينذاك إنه أوقف في برلين بتهمة النصب والاحتيال.

كان الطقس متقلباً وغريباً في ذلك الصيف. يتقلب فيه الجو من الحرارة والقيظ المحرق إلى البرودة والامطار والعواصف العنيفة. فاختار السفير الفرنسي أن يقضي فترة استجمامه السنوية في فيشي وخلت السفارة من العاملين لعدة أسابيع تقريباً.

أخبر جونساك أن وكيله في مزرعته الفرنسية لم يستطع تسويق الحبوب التي أنتجتها فغادرها مع عائلته وأبقاره وتركها بوراً. كان يردد دائماً عزمه على السفر إلى فرنسا لتأجير مزرعته من جديد ولكنه بقي في تركيا وكان كلما سئل عن موعدسفره يقول إنه سيذهب خلال أيام. لم يكن لديه أي عمل يقوم به وانحصرت مهماته القليلة في مرافقة بعض الفرنسيين العابرين لتركيا في زيارات متقطعة لاستنبول. كان يمضي معظم وقته متنقلاً بين مقهى "أفرونوس وبار فندق "قصر بيرا" أو يتجول في شوارع بيرا واضعاً المونوكل على عينه. كان يلتقي الاخوين عباد فقط ويحتسيان الشراب على نفقته.

أما ستولبرغ فقد تابع وحده تقريباً العناية بنوشي. كان يلقاها يومياً وبدأ يحبها أكثر فأكثر. كانت تقول لجونساك: «لو أردت لتزوجني» وحين ترى النظرة القلقة التي يرميها بها

جونساك تضحك وتقول له: «لا تخف! ليست لدي اية رغبة في ذلك!» أعلن الدبلوماسي السويدي الذي احتل جونساك ونوشي شقته أنه لن يعود إلى تركيا. عرض عليهما شراء مفروشاته ولوحاته فقبل جونساك شراءها على أن يدفع ثمنها على أقساط. قبل السويدي بذلك ولكنهما لم يدفعا شيئاً... ولم تكن لديهما النية في دفع قرش واحد.

مضت أشهر على حياة جونساك ونوشي معاً تحت سقف واحد. يعيشان ليومهما حريصين ألا يكونا وحدهما دون أحد معهما. وقد شعرا بفراغ كبير عندما اضطر ستولبرغ للسفر إلى السويد في أمر خاص. كانت تربطهما مودة خالصة؛ لم يحصل منها على شيء كما أنه فقد الشعور بحاجته الجنسية أو باشتهاء النساء. في ليلة اضطرا فيها للنوم مبكراً لبقائهما من دون اصدقاء قالت له بصوت رخيم: «جونساك، هل أنت حزين؟»أجابها بالنفي فتابعت: «هل فقدت اشتهاءك لي؟» لم يجب فقالت: «اعترف أنك لا تقول شيئاً خوفاً من فقداني!».

أخذت تتجول في الشقة كعادتها نصف عارية تنظر إلى نهديها في المرآة تداعبهما بكلتا يديها ثم تنزل يديها بحركة مثيرة إلى ردفيها النحيلين قائلة: «لو كنت متأكدة من تعاستك...» سأل ببرود: «ماذا....» تابعت: «لا أدري... ربما....» تلميح كهذا كان في الماضي كافياً لأن يرتمي عليها رغم ضحكتها اللاذعة ولكنه الآن لم يحرك ساكناً. تابعت: «إنك تحبني فعلاً حب رجل لامرأة وربما أكثر...!» اعترى صوتها نبرة انتصار وهي تقول ذلك، انتصار مشوب بالحنان. أضافت: «اعترف! لا تستطيع الحياة من دوني وستفعل ما

أريده منك.... اعترف... قد تنال مكافأة...!» ارتسمت على وجهه علامات التجهم ولكنه قال بخنوع: «إني اعترف.»اقتربت واستلقت إلى جانبه في السرير بعد أن خلعت مئزرها وقالت: «هيا! أطفئ النور!»

غريب أن يفكر جونساك في هذه اللحظة بأزقة فيينا والتخشيبة، بالفتاة الصغيرة المتوترة خوفاً وفضولاً! كان عليه أن يرفضها ولكنه انقض عليها كالمجنون. تخيّلها مبتسمة بتسامح وحنو، واهبة نفسها عن رضا. وعندما استلقى منهكاً على الوسادة سألته هامسة: «هل استمتعت بذلك؟!» أراد أن يأخذها من جديد بين ذراعيه ويُطريها بكلمات حلوة ولكنه توجّس من ضحكة رنانة أو بسمة لاهيَة قد تصدر عنها ولكنها قالت: «لم ينل الآخرون ما نلت الآن.»

كاد أن يخلد إلى النوم عندما سمعها تقول: «لقد رأيت ليليا ...». كان قد رآها ايضاً يوم ذهب في المركب إلى تيرابيا، ذلك المركب الذي استقلاه معاً إلى ينبوع "مياه أوروبا العذبة". نعم! رآها في الحديقة، حديقة منزل تيرابيا، مستلقية في عربة صغيرة وكتاب بين يديها. تابعت نوشي: «لو أنك كنت اردت ذلك لسمحت لك بالزواج منها!» كان النعاس قد غلبه فلم يفهم ما قالته.

- ... شريطة أن أبقى بقربكما، وأن أكون أنا المهمة.

ظل جونساك فترة طويلة يظن أن تصرف نوشي الأخير معه كان دليلاً على حبها له. لم يتأكد له ذلك فلم يجرؤ على سؤالها خوفاً من غضبها أو فقدانها؛ فهو بحاجة اليها حاجته لشعاع شمس يوقظه، للقاء مع زبائن "أفرونوس" في الظهيرة؛

حاجته للتجول في شوارع المدينة مساء والجلوس في القهوة الصغيرة في (توب - هاني) مع مفتي أو أحد الاخوة عباد. إنه محتاج إليها كما هو محتاج لسماع سليم بك وهو يقرأ الشعر أو يشعل غليون الحشيش الذي أعدَّه له الألباني وأن يحلم الجميع بصوت مرتفع في آن معاً، وهم ينظرون إلى آثار أوابد الأيام الخوالي.

انتهى موسم الإجازة وعاد الجميع الواحد تلو الآخر: مفتي بك كان أول من عاد متقرح النفس من عصبة الامم التي لم تساعده في استرجاع أملاكه، ثم عاد عمار باشا واندمج مع المجموعة يرافق نوشي مرتين أو ثلاث أسبوعياً، وستولبرغ الذي رجع من السويد متجهماً يتكلم بلهجة بلده.

ذهب جونساك لزيارة المفوض المسؤول عن الاجانب في عمل لصالح السفارة. قدم له القهوة والدخان كعادته وقال: «إذن! فقد أصلحت الأمور!». ابتسم ابتسامة غريبة تنطوي على سخرية وشفقة وتابع: «من يعيش في بلدنا لا يستطيع مفارقتها أبداً!! ماذا لو عُرضت عليك الملايين في بلدآخر....!»

فكر جونساك بمزرعته المتهدمة المهجورة هناك في واد في "البيريجور" التي أصبحت مرتعاً للصوص... إنها مزرعة قيِّمة إنما تنقصه الشجاعة للذهاب اليها اسبوعاً واحداً.... انتبه من جديد إلى المفوض وهو يكمل حديثه: «هنا، عليك أن تعيش مع التيار فهو أقوى منا! والأجانب يجهلون ذلك..» نظر اليه جونساك وتأمله: إنه هادئ الاعصاب ببذته القديمة الرمادية ذات الياقة المتشَّاة، يدفع حبات سبحته الكبيرة الصفراء، قد تكون له حياة خاصة وتطلعات ونقائص!! شاهد

جونساك سجيناً ايطالي الجنسية قُبض عليه لعدم وجود أوراق ثبوتية لديه يمر في باحة السجن الخارجية عندها قال له الموظف: «تفضل سيجارة أخرى».

تهيأ لجونساك أن تلك اللفافة تحتوي على الحشيش وذكره الدخان المتصاعد منها بالليالي التي أمضاها في تعاطي الحشيش. قطع الموظف سلسلة أفكار جونساك بسؤاله: «هل السيدة دو جونساك مطمئنة الآن؟» صَدَمَ هذا الاسم جونساك فلم يكن معتاداً على سماعه، نظر إلى الموظف فشعر التركي بالحرج فقد خرج عن قواعد الادب الخاصة بجنسه بالسؤال عن السيدة فاعتذر قائلاً: «إنني أهتم بكما كثيراً.» تلوّن وجه جونساك واضطرب ثم تأكد من وجود المونوكل على عينه وشكره فقال التركي: «أرجو أن تمكثا وقتاً طويلاً بيننا» كان بامكان جونساك الإجابة «دوماً!»

كيف ستكون حياته من الآن فصاعداً؟ سيدور في حلقة من البوسفور إلى بحر مرمرة، من جزر البرنس إلى جزيرة برنكيبو، من استنبول إلي چالاتا، من حارات بيرا القديمة والمقاهي الشعبية تحت ظل شجرة تين إلى محل الحلويات في الشارع الرئيسي؛ من بار فندق قصر بيرا إلى ماكسيم والقط الأسود.....

حسبت نوشي أنه بمقدورها كسر الحلقة التي تعيش ضمنها لكنها فشلت في ذلك. فكانت بحاجة للتنزه في مراكب مجذافية فوق مياه البوسفور أو في المقابر الايوبية تحت ضوء القمر أو عند القرن الذهبي وقت الأصيل.

كان جونساك في زيارة للمفوض عندما قال له بجديّة:

«رغب والدا الفتاة في اصطحابها إلى فرنسا للعلاج، إلى مصح لأمراض العظام في مكان اسمه"بيرك"ولكنها رفضت ذلك. وقد توقع الجراح النمساوي الذي يعودها شهرياً بقاءها في الجبس لمدة سنة كاملة» لم يعلق جونساك فاستعاد المفوض بسمته وتابع: «كانت تريد البقاء في تركيا لذلك أعدت لها سيارة خاصة تستطيع قيادتها كما تقود دراجة.» كان المفوض فخوراً لفكرة بقاء ليليا في تركيا. سأله جونساك: «هل ستشفى؟» أجابه المفوض: «لن تستطيع السير أبداً كأي امرأة أخرى... وذلك غير ذي أهمية فهي فتاة ثرية.» عض جونساك على شفتيه واستأذن بالخروج.

تساءل في الطريق إن يكن هناك أناس أكبر منه سناً واكثر ذكاء منه لم يكونوا قد سخروا منه.

أولئك موجودون في استنبول. توفي فقط السيد باستور فآلامه الصدرية كانت نتيجة ذبحة صدرية أودت به ذات صباح بينما كان يحلق ذقنه. ليليا أصبحت تستعمل عكازين ولن تشفى ابداً فهي عرجاء، وجهها يشابه وجه والدتها وكأنها أختها الصغرى، تمضي وقتها في قراءة الصحف الفرنسية وكل ما يُكتب عن تركيا وترد على الانتقادات المغرضة التي ينشرها الاجانب عن تركيا برسائل احتجاج. لقد تركت منزل بيرا لتسكن بشكل دائم في المنزل الواقع على البوسفور حيث تمتع ناظريها برؤية المراكب الذاهبة إلى تيرابيا ومياه اوروبا العذبة. كانت ترى اليخوت تمخر عباب الماء واحياناً يخت قتاش باشا الانيق وعلى متنه الاشخاص ذاتهم متحلقين حول نوشي.

البعض يلقبها "عذراء استنبول" والبعض الآخر" زوجة الأزواج الثلاثة" والاربعة والخمسة، والستة فأزواجها في تزايد مضطرد حولها يسامرونها ويلثمون جبينها وخديها. إنها محظية الجميع في العصابة ولا أحد منهم. ستولبرغ يغار من مفتي بك أو عمار باشا وهذا الأخير يتساءل فيما إذا كان مغفلا! أما مفتي بك فيعتبر نفسه ذكياً ويقول مقهقهاً: «إنها ليست لأحد.... وجونساك الأذكى... فلديه شقة جميلة وحياة سهلة.»

كان على جونساك أن ينتظر ثماني أو عشرة أيام قبل أن يتمنى له ذات مساء أن يتنهد ويناديها: «نوشي!...!» فتجيبه باستغراب «هل تريد ذلك أيضاً!...!» ينسلّ إلى فراشها بخجل قائلاً: «نوشي.... أريد.... لا أدري... » وتمنحه نوشي جسدها.... ساكنة دون حراك.

وفي الصباح تستمر الحياة ....



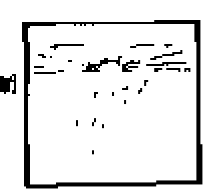
نوشي، جليسة الشرب في الملاهي الليلية، وترجمان السفارة الشاب، برنار دو جونساك، الذي يعمل في سفارة فرنسا، تبدأ قصتهما في أنقرة، وتتواصل في استنبول.

وحول الثنائي، كل تركيا الجديدة هي التي ترتسم ملامحها وحركتها، بجاذبيتها الآسرة، وأسرارها، وحلاوة العيش فيها.

الأسرار، نوشي وزوجها، ينطويان على فيض منها. فحكايتهما ستنتهي من دون أن ينجلي الإلغاز النفسي والحسّي الذي يجعلهما غير قادرين على أن ينفصل أحدهما عن الآخر.

«صرح روائي يكاد لا يحد أبعاده الضخمة حد»

كلود روا



دار المدى للثقافة والنشر